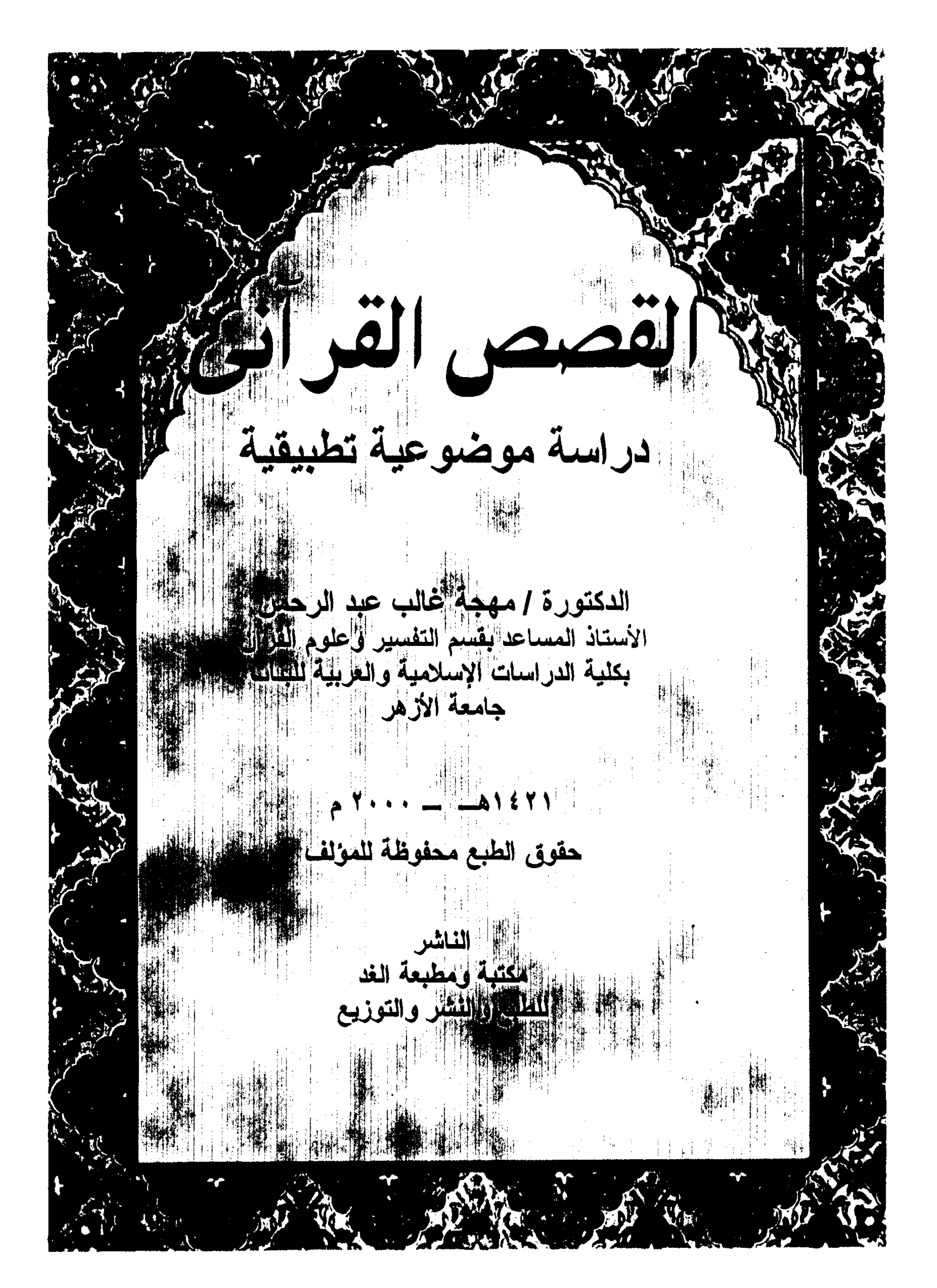


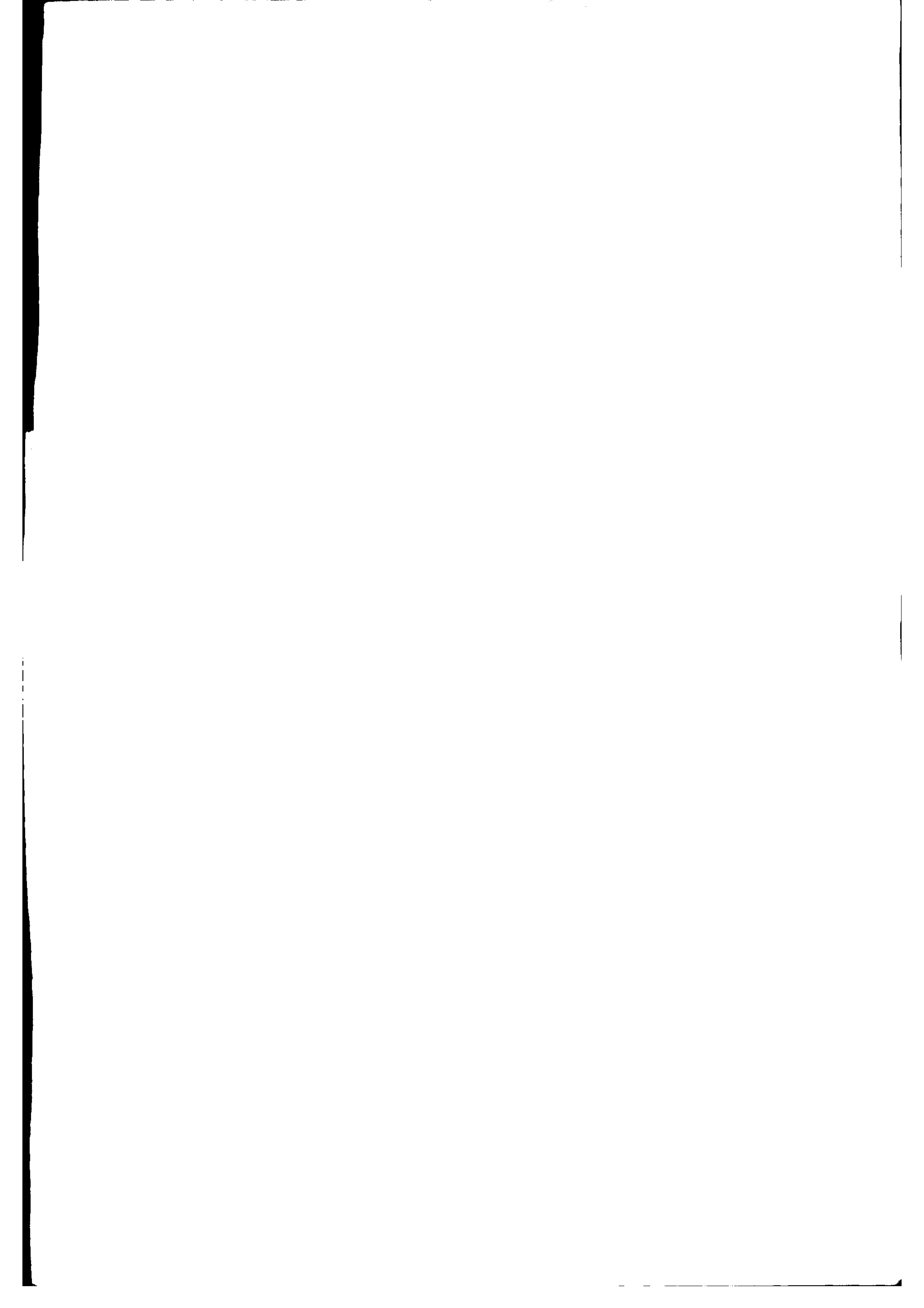
القصص القرآنى

دراسة موضوعية تطبيقية

الدكتورة / مهجة غالب عبد الرحمن
الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
جامعة الأزهر

١٤٢١هـ ــ ٢٠٠٠ م

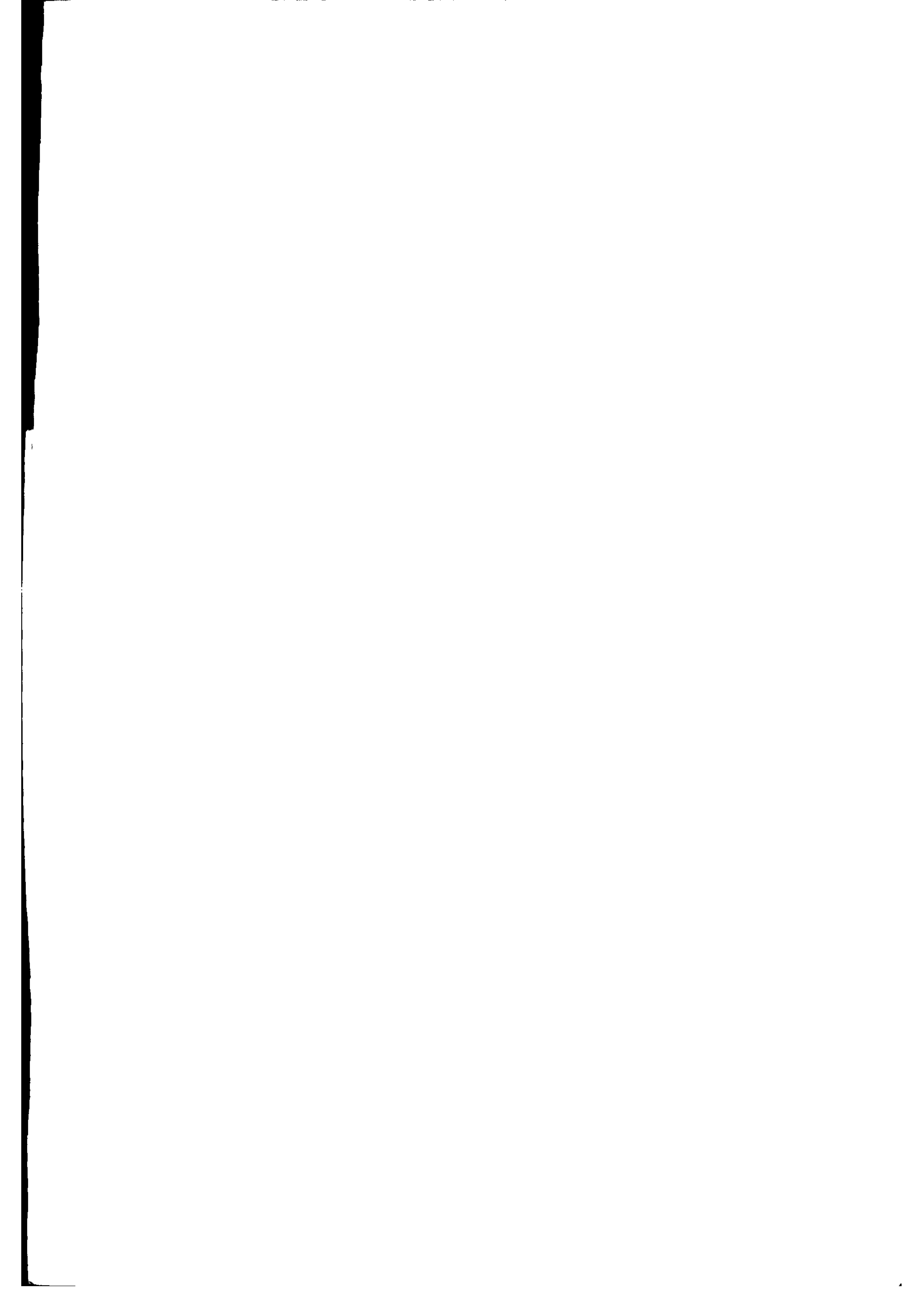
الناشر
مكتبة ومطبعة الغد
للطبع والنشر والتوزيع



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليـــك هذا القرآن ﴾

سورة يوسف الآية ٣



مقدمة

القصة أول رفيق للإنسان وأول خطواته فى الحياة • وكـــانت من أول التصورات التى عرفها العقل •

ولسنا مبالغين إذا قلنا إن القصة كـــانت مـــن أقـــوى القـــوى الموجودة فى الإنسان الأول ، بحثا عن الكلمات التى ينطق بـــها • ليتصور بها ما يدور حوله فى العالم •

وهكذا بدأ الإنسان يسجل الصفحات الأولى من تاريخه الطويـــل فى الحياة •

والحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليـــها الســـمع وإذا شملت العبرة من الحادثة كان حب الاســـتطلاع لمعرفتـــها أقـــوى وعندما تخدم حياة الإنسان تكون هدفا فى الحياة وترتـــاح النفـــس لسماعها ويتقبلها ويقدم على معرفتها بشوق ولهفة فتأثر فيه ويتعلـــم منها •

والقصص القرآنى يقدم لنا القصة فى صدق ــ أقوى تمثيـــل وفى ابلغ صورة •

يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب : " القصة كانت ولا تـــزال مدخلا طبيعيا يدخل منه أصحاب الرسالات والدعـــوات والـــهداة ، والقادة إلى الناس ، وإلى عقولهم ليلقوا فيها بما يريدونهم عليـــه ، من آراء ، ومعتقدات ، وأعمال •• ولعل عصرنا هذا هـــو خـــير شاهد على ما للقصة من سلطان فى الحياة ، ومن أثر فـــى تغيـــير

أوضاعها وتلوين وجوهها السياسية والإجتماعية والإقتصادية إذ هى أقوى جهاز من أجهزة التأثير فى قيادة الجماعـــات البشـــرية فـــى الحرب والسلم على السواء " . [١]

من أجل هذا كانت القصة فى القرآن الكريم ركيزة قوية مـــن ركائز الدعوة الإسلامية القائمة على الإقناع العقلى بالأدلة وعلـــى الإطمئنان القلبى والمثل ، والقصص .

وتعتبر القصة أحدى أساليب الدعوة فى القرآن الكريم وليـــس فى القصص القرآنى ما فى غيره من القصص ٠٠ مـــن المواقـــف التى يراد منها استثارة العواطف المريضـــة واســـترضاء الميـــول المنحرفة وغير ذلك مما يحط من النفس البشرية ويرد بها ويرميـــها فى أحضان الهلاك .

فالقصص القرآنى يرفع النفس ويحارب النفوس المريضة بـــل يظهر لنا مدى ما ينزل بأصحابها من الهوان والهلاك وذلـــك لأنـــه كما وصفه سبحانه وتعالى بأنه حق وصدق قال عز مـــن قـــائل : **﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾** [٢].

وسوف تكون خطة البحث إن شاء الله تعالى الآتى :

تقسيم البحث إلـــى فصليـــن ، **الفصـــل الأول** وهـــو دراســـة موضوعية للقصص القرآنى ويشتمل على ستة مباحث :

---

(١) أنظر القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه ص ٧ .

(٢) سورة آل عمران جزء من الآية ٦٢ .

المبحث الأول : المعنى اللغوى والإصطلاحى للقصص ٠

المبحث الثانى : أنواع القصص فى القرآن ٠

المبحث الثالث : فوائد القصص فى القرآن ٠

المبحث الرابع : تكرار القصص وحكمته ٠

المبحث الخامس : القصص القرآنى حقيقة لا خيال ٠

المبحث السادس : أثر القصص فى التربية ٠

الفصل الثانى : وهو عبارة عن جانب تطبيقى للقصص القرآنى ويشتمل على عدة مباحث :

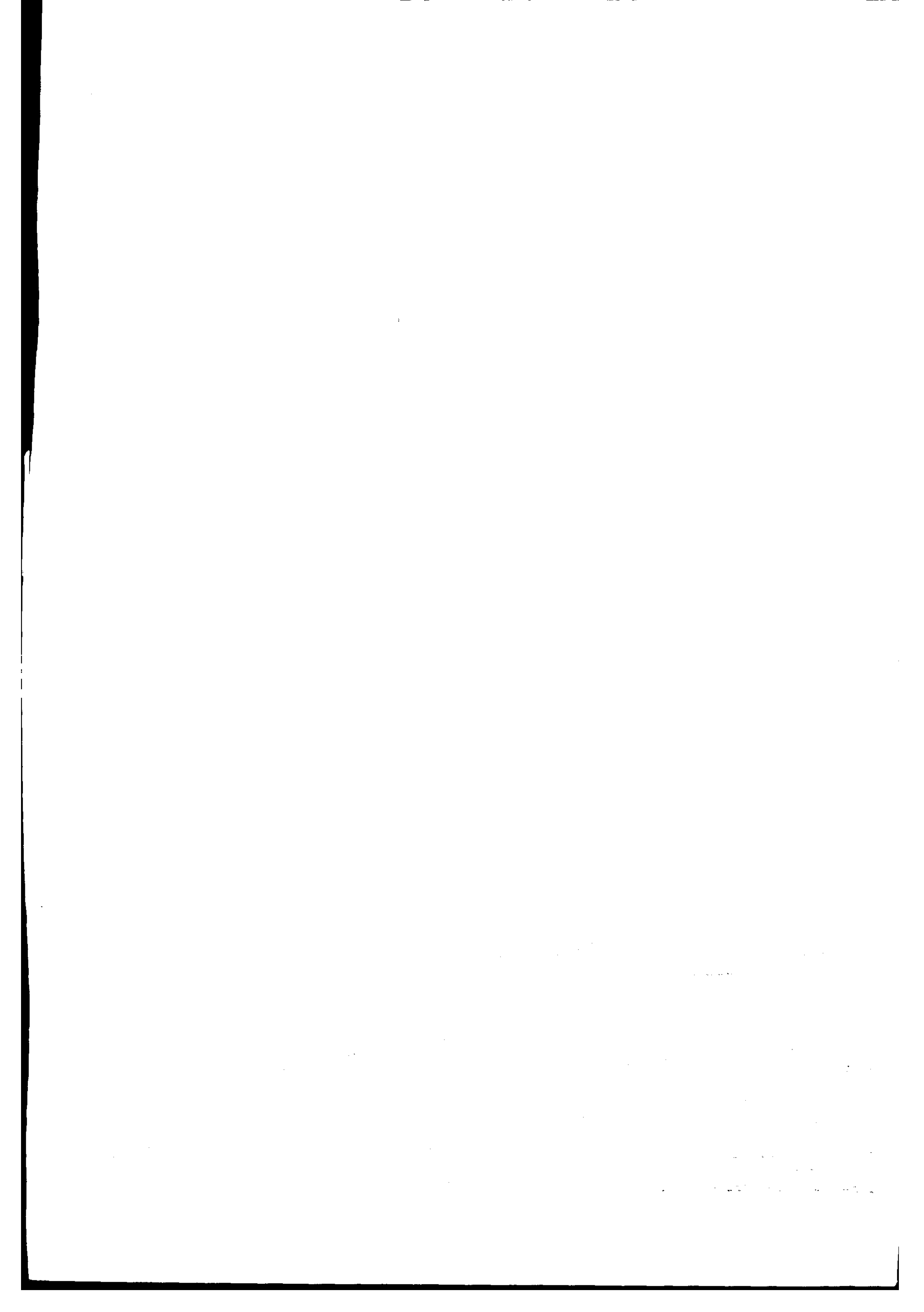
وسوف ألتزم إن شاء الله بمنهج موضوعى تطبيقى لإبراز القصة من خلال القصص القرآنى ، الذى يربى النفس البشرية ويهيأها لتحمل التكاليف والمشاق من خلال ما يبثه من قوى معنوية ومشاعر إيمانية ومبادئ إنسانية تنبسق فى النفس البشرية من خلال السرد القرآنى العظيم لقصص الأنبياء والمرسلين وغيرهم ٠

والله ولى التوفيق

د ٠ مهجه غالب عبد الرحمن

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

بكلية الدرسات الإسلامية والعربية للبنات ــ القاهرة



الفصل الأول
الدراسة الموضوعية

المبحث الأول
معنى القصص

القصص فى اللغة : ـ

قال الليث : القَصُّ فعل القاص إذا قص القصص ، والقصة معروفة • ويقال : فى رأسه قصة يعنى الجملة من الكلام ونحوه قوله تعالى : ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص** ﴾ (١) أى نبين لك أحسن البيان •

والقاص : الذى ياتى بالقصة من فَصِّها •

ويقال : قُصَصْتُ الشئ إذا تتبعت أثره شيئا بعد شئ ومنه قوله تعالى على لسان أم موسى : ﴿ **وقالت لأخته قصيه** ﴾ (٢) أى تتبعى أثره حتى تنظرى من يأخذه والقصص مصدر قال تعالى : ﴿ **فارتدا على آثارهما قصصا** ﴾ (٣).

والقصة : الخبر وهو القصص • وقص على خبره يقصه قصا وقصصا : أورده •

والقَصصُ : الخبر المقصوص ، بالفتح ، وضع موضع المصدر حتى صار اغلب عليه •

والقصص : بكسر القاف : جمع القِصَه التى تكتب •

---

(١) سورة يوسف الآية ٣ •

(٢) سورة القصص الآية ١١ •

(٣) سورة الكهف الآية ٦٤ •

فالقصص : الأخبار المتتبعة قال تعالى : ﴿ **إن هذا لهو القصص الحق** ﴾ [١] وقال تعالى ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب** ﴾ [٢].

والقصة : الأمر والحديث ٠ واقتصصت الحديث ، رويته على وجهه ، وقَصّ عليه الخبر قصصا ٠

قال الأزهرى : القصُّ اتباع الأثر ٠ ويقال : خرج فلان قصصا فى أثر فلان وقصا ، وذلك إذا اقتص أثره ٠

وقيل : القاصُ يَقُصُّ القصص لإتباعه خبرا بعد خبر وسوْقِهِ الكلام سوقا ٠ وقال أبو زيد تقصصت الكلام حفظته [٣].

يقول الإمام الفخر الرازى : " خرج فلان قصاا فى أثر فلان وقصا وذلك إذا اقتص أثره " [٤].

ويقول الإمام النسفى عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **فارتدا على آثارهما قصصا** ﴾ [٥] أى رجعا من الطريق الذى جاءا فيه يتبعان آثارهما اتباعا [٦].

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦٢ ٠

(٢) سورة يوسف الآية ١١١ ٠

(٣) أنظر لسان العرب ج ٤ ص ١٩٠ ، ١٩١ ومختار الصحاح ص ٢٥٤ ، المفردات للراغب ص ٤٠٤ ط دار المعرفة ـ بيروت ٠

(٤) أنظر تفسير الفخر الرازى ج ٢٤ ص ٢٣٠ الطبعة الثانية / دار الكتب العلمية طهران ٠

(٥) سورة الكهف جزء من الآية ٦٤ ٠

(٦) أنظر تفسير الإمام النسفى ج ٣ ص ١٩ ط دار إحياء الكتب العربية ٠

ويخبرنا الإمام سيد قطب [1] أن القصة هـــى إحـــدى وســـائل الدعوة والإبلاغ شأنها فى ذلك شأن الصور التى يرسمها للمشـــاهد مثل يوم القيامة والعذاب وشأن الأدلة التى يسوقها والأمثـــال التـــى يضربها ٠

ويقول الإمام القرطبى [2]: " سميت قصصا لتتابع المعانى فيـها فهى من قولهم فلان يقص الحق أثر فلان أى يتتبعه قـــال تعـــالى : ﴿ **إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله** ﴾ [3] ما هـــو إلا إخبار عن تتابع أخبار السابقين ٠

ومن خلال اللغة نخلص بالآتى :

إن مادة قص تطلق فى اللغة على إطلاقات عديدة منها : تتبـــع الأثر والأخبار والأمر والشأن والحال ٠

قصص القرآن : ـ

تطلق القصة فى القرآن الكريم ويراد بها إخبار المولـــى عـــز وجل عن أحوال الأمم الماضية والنبوات السابقة والحوادث الواقعة ٠

وقد اشتمل القرآن الكريم على الكثير مـــن أحـــداث المـــاضى وتاريخ الأمم السابقة ، وذكر أحوالهم وتتبع آثـــارهم فـــى صـــورة رائعة وبيان واضح بديع بليغ ٠

---

(١) أنظر التصوير الفنى فى القرآن للأستاذ سيد قطب ص ١١٧ ط دار الشروق ٠

(٢) أنظر تفسير الإمام القرطبى ج ٢ ص ١٣٤٧ ط دار الشعب ٠

(٣) سورة آل عمران الآية ٦٢ ٠

يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب : " والقصة فى القرآن إنما تتبع أحداثا ماضية واقعة ، وتعرض منها ما ترى عرضه ومن هنا كانت تسمية الأخبار التى جاء بها القرآن قصصا ، مما يدخل فى المعنى العام لكلمة خبر أو نبأ .. " [١].

ونحن حين ننظر فى المعنى اللغوى للقصة نرى أن أصل اشتقاقها يتلاقى مع المفهوم الذى قام عليه أصل التسمية للقصص القرآنى " وقد استعمل القرآن الكريم الخبر والنبأ بمعنى التحدث عن الماضى ، وإن كان قد فرق بينهما فى المجال الذى استعملا فيه جريا على ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام وإعجاز .. فاستعمل النبأ والأنباء فى الإخبار عن الأحداث البعيدة ، زمانا أو مكانا ، ولفها فى أطوائه .. على حين انه استعمل الخبر والأخبار فى الكشف عن الوقائع القريبة العهد بالوقوع ، أو التى لا تزال مشاهدها قائمة مائلة للعيان .. ففى النبأ والأنباء يقول الله تعالى ، فى أصحاب الكهف : ﴿ **نحن نقص عليك نبأهم بالحق** ﴾ [٢] .. ويقول سبحانه فى شأن الأمم الماضية وما وقع فيها من مثلات : ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد** ﴾ [٣].

---

(١) أنظر القصص القرآنى ص ٤٤ .

(٢) سورة الكهف الآية ١٣ .

(٣) سورة هود الآية ١٠٠ .

... ويقول سبحانه فيما يقص على نبيه من قصص الأولين :

﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا** ﴾ (1).

وفى الخبر والأخبار يقول سبحانه مخاطبا المؤمنين ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم** ﴾ (2).

ويقول جل شأنه فيما يكون من أحداث القيامة : ﴿ **يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها** ﴾ (3) . والتحديث بالأخبار إنما يكون فى هذا الوقت الذى تقوم فيه الساعة .

وانظر فى قوله تعالى : ﴿ **نحن نقص عليك نبأهم بالحق** ﴾ نجد ان القصص القرآنى إنما هو من قبيل الأنباء .. أى الأخبار التى بعد الزمن بها ، واندثرت أو كادت تندثر ؛ ولهذا اسماها القرآن : من أنباء الغيب .

وحين ننظر فى القصص القرآنى نجد أنه يجئ : آداته كلها من الماضى البعيد ، دون أن يكون فيه شئ من واقع الحال أو متوقعات المستقبل (4).

ومن هذا المنطلق يمكن القول : بأن القصة فى القرآن تعد من الوسائل التعبيرية الفعالة لإبلاغ الدعوة إلى جانب ما فيها من إيناس

---

(1) سورة هود الآية ٤٩ .

(2) سورة محمد الآية ٣١ .

(3) سورة الزلزلة الآية ٤ .

(4) أنظر القصص القرآنى ص ٤٥ ، ٤٦ .

لرسول الله ﷺ ومؤازرة له فهى تعتبر الزاد الإلهى الذى يمد الله به رسوله ﷺ فى رحلته البعيدة المدى الثقيلة الأعباء لأنها تبعث على الطمأنينة والرجاء " [١] .

ويقول الدكتور / عوضين عن القصة القرآنية " بأنها الجزء القرآنى الذى يقص آثار الغابرين " وبعض الأحداث الماضية لتقدم منها ما ترى أنه يحقق الغاية والهدف ويفى بالمقصود فى معرضه ، فهى تشتمل على الأنباء الحقة التى لا زيف فيها " [٢].

---

(١) أنظر سيكولوجية القصة د . التهامى نفرة ص ٢٤٧ ، دراسات فى التفسير الموضوعى للقصص القرآنى د أحمد جمال الفصل الرابع ص ١٧٦ ، ص ١٧٧ .

(٢) أنظر البيان القصصى فى القرآن الكريم للدكتور إبراهيم عوضين ص ١٨ .

المبحث الثانى
أنواع القصص فى القرآن

القصص فى القرآن ثلاثة أنواع :

النوع الأول : قصص الأنبياء والرسل :

وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم ، ومن المعروف الثابت بالقرآن الكريم أن التوحيد أول دعوة الرسل قال تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ [1] وقال نبى الله هود لقومه : ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ [2] وكذلك نبى الله صالح ـ عليه السلام ـ قال لقومه : ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ [3] وقال شعيب ـ عليه السلام ـ ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ [4] .

فأخبرنا المولى عز وجل بإرسال الرسل لجميع الأمم لتأمرهم بتوحيده فلا يسوغ لأحد أن يعبد غيره سبحانه ولا يحق له بعد أن علم بعاقبة من خالف الرسل وكذب الحق واتبع الضلالة وترك الهدى يقول تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ [5].

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٩ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٦٥ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٧٣ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٨٥ .

(٥) سورة النحل الآية ٣٦ .

وقال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ (١).

فالآيات جميعها توضح لنا أن التوحيد نادت به جميع الكتب السماوية وأجمعت عليهم الرسل عليهم جميعا السلام ٠

وعن الآية الأخير جاء فى الإتحاف : " قرأ حمزة والكسائى وحفص : " نوحى " بالنون وكسر الحاء ، على التعظيم ، وقرأ الآخرون بالياء وفتح الحاء " (٢).

ويقول الإمام ابن عجيبة : " وصيغة المضارع فى " يوحى " ؛ لحكاية الحال الماضية ؛ واستحضاراً لصورة الوحى العجيبة ٠ والله تعالى أعلم " (٣).

وقال رسول الله ﷺ : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا أن لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله " (٤).

وقد تتضمن أيضا المعجزات التى أيدهم الله بها كعصا موسى وناقة صالح وتخلى النار عن وظيفتها بالنسبة لسيدنا إبراهيم وتكلم عيسى ـ عليه السلام ـ فى المهد ومعجزة

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٥ ٠

(٢) الإتحاف ج ٢ ص ٢٦٢ ٠

(٣) أنظر البحر المديد ج ١٧ ص ٤٥٣ ٠

(٤) صحيح الإمام مسلم بشرح الإمام النووى ج ١ كتاب الإيمان باب قبول اسلام من أطهر الإسلام وأسر الكفر ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ٠

سيدنا محمد ﷺ المعجزة الكـبرى وهـى القـرآن الكريـم الـذى تحدى به أهل البلاغة والفصاحـة ومعجزاتـه الحسـية المتعـددة مثل نبع الماء من بيـن أصابعـه ، وتكثـير الطعـام ، وانشـقاق القمر وفى ذلك يقول القرآن :﴿ **اقـتربت السـاعة وانشـق القمـر وإن يروا آية يعرضوا ويقولون سـحر مسـتمر** ﴾ [1].

ويبدوا واضحا من الآية أنها تتحـدث عـن معجـزة انشـقاق القمر وما اتصل به من تكذيب قريش لـها • وزعمـهم أنـها لـون من السحر • وقـد روى الإمـام البخـارى عـن ابـن مسـعود رضى الله عنهما قوله : " انشـق القمـر علـى عـهد رسـول الله ﷺ : اشهدوا : قال مسروق : وكان ذلـك بمكـة وزاد فقـال كفار قريش سحركم ابن أبى كبشه فقال رجـل منـهم : إن كـان محمد قد سحر القمـر • فإنـه لا يبلـغ مـن سـحره أن يسـحر الأرض كلها • فاسألوا مـن يـأتيكم مـن بلـد آخـر هـل رأوا هذا • فأتوا فسألوهم • فأخبروهم أنهم رأوا مثـل ذلـك [2].

وموقف المعاندين من الرسل ، ومراحل الدعوة وتطورها ، وعاقبة المؤمنين والمكذبين كقصة نوح ، وإبراهيم ، وموسـى ، وهـارون ، وعيسى ، ومحمد ﷺ وغيرهم عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام •

---

(١) سورة القمر الآية ١ •

(٢) صحيح البخارى باب مناقب الأنصار باب ٣٦ انشـقاق القمـر ج ٥ ص ٦٢ ومسند أحمد بن حنبل ج ١ ص ٣٧٧ •

النوع الثانى : قصص قرآنى يتعلق بحوادث غابرة ، وأشخاص لم تثبت نبوتهم ، كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت .

قال تعالى : ﴿ **ألم ترى إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون** ﴾ (1).

وقصة طالوت وجالوت قال تعالى : ﴿ **وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنىَّ يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم** ﴾ (2).

وقد ذكر الشيخ / السيد محمد رشيد رضا فى تفسير هذه الآية تفسيراً قيماً فقال : ﴿ **قال أن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم** ﴾ فسروا اصطفاء الله تعالى هنا بوحيه لذلك النبى ، أن يجعل طالوت ملكا عليهم ، ، ولعله لو كان هذا هو المراد لقال : اصطفاه لكم كما قال ﴿ **اصطفى لكم الدين** ﴾ (3) والمتبادر عندى ، أن معناه : فضله واختاره عليكم بما أودع فيه من الاستعداد

---

(1) سورة البقرة الآية ٢٤٣ .

(2) سورة البقرة جزء من الآية ١٣٢ .

(3) سورة البقرة جزء من الآية ١٣٢ .

الفطرى للملك ، ولا ينافى هذا كون اختياره كان يوحى مـــن الله ، لأن هذه الأمور هى بيان لأسباب الاختيار وهى أربعة : ـــ

١ ـــ الاستعداد الفطرى

٢ ـــ السعة فى العلم الذى يكون به التدبير ٠

٣ ـــ بسطة الجسم المعبر بها عن صحته وكمال قواه المستلزم ذلـك لصحة الفكر على قاعدة " العقل السليم فى الجسم الســـليم " ، وللشجاعة والقدرة على المدافعة والهيبة والوقار ٠

٤ ـــ توفيق الله تعالى الأسباب له ، وهو ما يعبر عنه بقوله تعالى : ﴿ **والله يؤتى ملكه من يشاء** ﴾ (١) ٠

وكذلك يشمل هذا النوع قصة أبنى آدم قال تعالى : ﴿ **واتل عليـهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولـم يتقبـل مـن الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين * لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العـــالمين * وإنى أريد أن يتبوء بإثمى وإثمك فتكون من اصحاب النار وذلك جـــزاء الظالمين * فطوعت له نفسه قتـــل أخيـــه فقتلـــه فـــأصبح مـــن الخاسرين** ﴾ (٢) ٠

وكذلك قصة أهل الكهف ، وذى القرنيـــن ، وقـــارون وأصحـــاب السبت ، ومريم ابنة عمران ، وأصحاب الأخدود ، وأصحاب الفيـل وغيرهم ٠

---

(١) تفسير المنار ج ٢ ص ٣٧٨ ـــ ٣٧٩ ٠

(٢) الآيات ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ من سورة المائدة ٠

النوع الثالث : قصص يتعلق بالحوادث التى وقعت فى زمن رسول الله ﷺ كغزوة بدر وأحد فى سورة آل عمران وغزوة حنين وتبوك فى سورة التوبة ، وغزوة الأحزاب فى سورة الأحزاب والهجرة ، والإسراء ، وحادثة الإفك وغير ذلك .

المبحث الثالث

فوائد القصص القرآنى

للقصص القرآنى فوائد عديدة نذكر بعضا منها على سبيل المثال :

١ ــ إيضاح أسس الدعوة إلى الله ، وبيان أصول الشـــرائع التـــى بعث بها كل نبى قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلـــك مـــن رسول إلا نوحى إليه أنه لا إلـــه إلا أنـــا فـــاعبدون** ﴾ [١].

فجميع الأنبياء والرسل من لدن آدم حتى رســـولنا محمـــد ﷺ كانوا يدعون إلى الله الواحد الأحد الفرد الصمد • الذى لم يلـد ولم يولد لذلك يجب تفرده وحده بالعبادة والإخلاص •

ومن هنا قضى رسول الله ﷺ بمكة المكرمة ثلاث عشرة ســنة يدعوا إلى التوحيد ويقتلع جذور الشرك ، والآيـــات التـــى تنـــادى بالتوحيد كثيرة منها :

قوله تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ [٢] وقوله تعالى : ﴿ **وإلى عاد أخـــاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ [٣].

وقوله تعالى : ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبـــدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ [١].

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٥ •

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٩ •

(٣) سورة العراف الآية ٦٥ •

كما يؤكد لنا المولى عز وجل وحدانيته عـــن طريــق الدليــل العقلى المستفاد من قوله : ﴿ **لو كان فيــها ألهــة إلا الله لفســدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾ [٢].

أى لو كان فى السموات والأرضين آلهة غــير الله معبــودون لفسدتا قال الكسائى وسيبوبة : " إلا " بمعنى غير فلما جمعت إلا فى موضع غير أعرب الاسم الذى بعدها بإعراب غير ٠٠٠

وقال الفراء : " إلا " هنا فى موضع سوى ، والمعنى : لو كان فيهما آلهة سوى الله لفسد أهلها ٠

وقال غيره : أى لو كان فيهما إلــهَان لفســد التدبــير ؛ لأن أحدهما إن أراد شيئا والآخر ضده كان أحدهما عاجزا ٠

وقيل : معنى : " لفسدتا " أى خربتا وهلك من فيــهما بوقــوع التنازع بالاختلاف الواقع بين الشركاء ٠

﴿ **فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾ نزه نفســه وأمــر العباد أن ينزهوه عن أن يكون له شريك أو ولد " [٣].

وقال تعالى أيضا فى معرض إثبات الوحدانية وبيان أنها أول أسس الدعوة ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** ﴾ [٤].

---

(١) سورة الأعراف الآية ٧٣ ٠

(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٢ ٠

(٣) أنظر تفسير الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى ج ١ اص ٢٧٩ ٠

(٤) سورة البينة الآية ٥ ٠

يقول الإمام النيسابورى : " قوله ﴿ **وما أمـــروا** ﴾ أى ومـــا أمروا بما أمروا به فى التوراة والإنجيل إلا لأجـــل أن يعبـــدوا الله على حالة الإخلاص ، والميل عن الأديان الباطلة فقوله ﴿ **حنفاء** ﴾ حال مترادفة أو متداخلة " [1].

ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب [2] : " إن القصة فى القرآن ركيزة قوية من ركائز الدعوة الإسلامية وهو أحد الأســاليب التـــى حملها القرآن ليحاج بها الناس وليقطعهم عن الجـــدل والمماطلـــة ، شأنه فى هذا شأن ما جاء فى القـــرآن مـــن أســـاليب الاســتدلال والمناظرة والتعجيز والوعد والوعيد والتهديد وغيرها من المشـــاهد والمواقف المبثوثة فى القرآن الكريم كله من قصار الســـور إلـــى أطوالها لا نجد سورة ـ مهما قصرت ـ تخلو من مشهد أو موقـــف ، يمهد للدعوة الإسلامية ، ويضع معلما أو معالم للهدى إليها والتبصـــرة بها فى منطق محكم ، وحجة دامغة ، وبيان معجز مفحم ٠٠٠

ويقول : أيضا : إن من مقاصد القصص القرآنى وغاياتـــه هـــى الدعوة إلى الحق والهداية إلى مواقع الخير ، وإقامة وجه الإنسانية على مسالك الحق والخير ، والميل بها عن مسارب الضلال والبوار ٠

٢ ـ تثبيت قلب رسول الله ﷺ وقلوب الأمة المحمدية على ديـــن الله وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده ، وخذلان الباطل وأهله فعندما يعلم رسول الله ﷺ مـــا تعـــرض لـــه الأنبيـــاء

---

(١) أنظر غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج ٣٠ ص ١٥٣ ٠

(٢) أنظر القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه ص ٨ ، ٩ ، ١٢ ٠

والرسل السابقين من عذاب واستنكار وسخرية مـــن قومـــهم عندما عرضوا عليهم الدعوة يكون ذلك أكبر تسلية له وعـزاء وأن ذلك سنة الله فى خلقه فيثبت قلبه ويرتاح يقــول المولــى عز وجل : ﴿ **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبـــت بـــه فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين** ﴾ [١].

يقول الإمام ابن كثير : " وكل أخبار نقصها عليك مـــن أنبـــاء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى وكيف نصـــر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين ، كل هذا مما نثبت بـــه فؤادك يا محمد أى قلبك ليكون لك بمن مضى من إخوانك المرسلين أسوة ؛ وقوله ﴿ **وجاءك فى هذا الحق** ﴾ أى هذه السورة قاله ابـــن عباس ومجاهد وجماعة من السلف ، وعن الحسن فى رواية عنــــه وقتادة فى هذه الدنيا والصحيح فى هذه الســـورة المشـتملة علـــى قصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم واهلك الكـــافرين جاءك فيها قصص حق ونبأ صدق وموعظة يرتدع بها الكـــافرون وذكرى يتذكر بها المؤمنون " [٢].

٣ ـ تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثـــارهم .

وأن الله ينصر رسله والذين آمنوا ويرحمـــهم وينجيـــهم مـــن

---

(١) سورة هود الآية ١٢٠ .

(٢) أنظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ .

المآرق والكروب ، من عهد آدم ونوح إلى عهد محمد ﷺ ، وأن المؤمنين كلهم أمة ، والله الواحد رب الجميع .

وعندما تستعرض خبر كل نبى نجد ان الله قد شدّ أزره ونصره ونجاه من الكرب الذى نزل به ، أو المأزق الذى أوشك أن يقع فيه ، كما نجى ذا النون " يونس " واستجاب لزكريا ، وكما نجى إبراهيم وقد أوشك أن يحترق بالنار ؛ وأنه سبحانه دائما ينعم على رسله والذين آمنوا إذا صبروا وصدقوا ، كما أنعم على داود بالنصر ، وسليمان بالملك ، فشكروا نعمة ربهم " [1].

٤ ـ **إظهار صدق محمد** ﷺ فى دعوته بما اخبر به عن أحوال الماضيين عبر القرون والأجيال .

وأمثلة ذلك كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾ [2] ويقول الإمام ابن كثير فى معنى هذه الآية : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك** ﴾ أى نقصه عليك ﴿ **وما كنت لديهم** ﴾ أى ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم عن معاينة عما جرى بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضر وشاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا فى شأن مريم أيهم يكفلها وذلك لرغبتهم فى الأجر " [3].

فالرسول ﷺ لم يكن حاضرا لديهم . ولا مشاهدا لأحداثهم .

---

(١) أنظر أصول التربية الإسلامية ص ٢٤٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٤٤ .

(٣) أنظر تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٣٦٣ .

فالأخبار عن غيب الماضى وقصص الأوليين أكبر دليل على صدق ما جاء به نبى الله محمد ﷺ ٠

وقد قص المولى عز وجل ما قصه من القصص استجابة لطلبهم القصص فعن مصعب ابن سعد عن أبيه سعد بن أبى وقاص قال : " أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زمانا ٠ فقالوا ٠ يا رسول الله لو قصصت ٠ فأنزل الله تعالى : ﴿ **ألر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين** ﴾ (١).

وكذلك قص عليهم رسول ﷺ قصة نوح وقصة هود وموسى وما كان للرسول ﷺ ليخبره بأخبارهم وقد اخبرنا المولى عز وجل بذلك فقال : ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا** ﴾ (٢).

وقال أيضا : ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنْ الشَّاهِدِينَ(٤٤)وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمْ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ(٤٥)وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٤٦)** ﴾ (٣) ٠

---

(١) سورة يوسف الآيات ١ : ٣ ٠ والحديث رواه الحاكم أبو عبد الله فى صحيحه وانظره فى أسباب النزول للواحدى ص ١٥٥ ٠

(٢) سورة هود من الآية ٤٩ ٠

(٣) سورة القصص الآيات ٤٤ ــ ٤٦ ٠

وكان نزول الآيات شهادة من الله على أن رسوله علم قصة موسى ـ عليه السلام ـ من القرآن وما كان له بها من علم ٠

نعم إن رسول الله ﷺ لم يكن حاضراً لديهم ولا مشاهداً لأحداثهم وأنى له بذلك ٠ أنى له أن يعايش نوحا وموسى ومريم وغيرهم ممن قص القرآن حديثهم وأخبرنا بما دق فى حياتهم مما كان يخفى على من عايشهم وعاشرهم ٠

كيف علم هذا رسول الله ﷺ وهو أمى لا يعرف القراءة ولم يتلقنها على يد معلم ٠

ومن هنا كان إخبار رسول الله ﷺ عن إخبار السابقين درباً من الإعجاز ودليلا قوياً على صدقه ٠

٥ ـ مقارعة أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البيات والهدى ، وتحديه لهم بما كان فى كتبهم قبل التحريف والتبديل وأمثلة ذلك كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ **كل الطعام كان حلاً لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين** ﴾ (١).

٦ ـ **القصص ضرب من ضروب الأدب** ، يصغى إليه السمع ، وترسخ عبره فى النفس قال تعالى : ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب** ﴾ (٢) .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٩٣ ٠

(٢) سورة يوسف الآية ١١١ ٠

وقد تكون التربية أيضا بطريقة الترغيب والترهيب " فلا تخلو قصة فى القرآن من ترهيب يثير الخوف أو ترغيب يبعث على الرجاء ، فهما قوتان فى الإنسان لا يستقيم أمره إلا بهما معا " [١].

قال الإمام الغزالى : " لا يقود إلى قرب الرحمن إلا أزمة الرجل ، ولا يصد عن نار الجحيم إلا سياط التخويف " [٢].

فالخوف والرجاء يرسمان أهدافه واتجاهه فى الحياة ، ويحدّدان سلوكه ومشاعره وأفكاره ، فعلى قدر ما يخاف ونوع ما يخاف ، وعلى قدر ما يرجو ونوع ما يرجو ، يتخذ لنفسه منهج حياته ، ويوفق بين سلوكه وبين ما يرجو ويخاف " [٣].

٧ ـ تنبيه أبناء آدم إلى خطر غواية الشيطان .

قال تعالى : ﴿ **يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوء اتهما إنه يراكم هو وقبيلة من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** ﴾ [٤].

وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم إلى أن تقوم الساعة ، وإبراز هذه العداوة عن طريق القصة أروع وأقوى ، وأدعى إلى الحذر الشديد من كل هاجسة فى النفس تدعوا إلى الشر [٥].

---

(١) سيكولوجية القصة فى القرآن ص ٤٤٤ .

(٢) أنظر إحياء علوم الدين للإمام الغزالى ص ٣٣٠ .

(٣) منهج التربية الإسلامية ص ١٥٦ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٢٧ .

(٥) قمت باقتباس بعض الفوائد من كتاب التصوير الفنى فى القرآن سيد قطب ص ١١٧ ــ ١٢٨ .

المبحث الرابع
تكرار القصص وحكمته

يقوم العمل القصصى على محورين : الشخصية ، أو الحدث ، بمعنى أن تكون الشخصية هى الفلك الذى تدور حوله الأحداث ، أو أن تكون الأحداث هى المركز الذى تدور فى دائرته الشخصيات ٠

وقد تتوازن فى العمل القصصى الشخصية والحدث ، فيتبادلان نقطة الارتكاز والتجمع ن مرة بعد مرة ٠٠٠

وفى القصص القرآنى نرى تدبيراً عجيبا معجزاً ، فى توزيع المشاهد القصصية توزيعاً محكما متوازنا ، وبين الحدث والشخصية ٠٠ فلا تجد موقفا من المواقف تستأثر به الشخصية وحدها ، أو الحادثة مع الشخصية فيتخلق من إجتماعها مضمون هو الذى يصبح بطل الموقف ، فتكون شخصيته أبرز شخوص القصة ، ويكون صوته أندى الأصوات فيها ، وأقواها سلطانا على المشاهدين أو المستمعين ٠

فالأشخاص فى القصص القرآنى – أيا كانوا – ليسوا مقصودين لذاتهم من حيث هم أشخاص تاريخيون يراد إبراز معالمهم ، وكشف أحوالهم ، والتمجيد أو التنديد بأعمالهم ٠٠٠ وإنما يعرض القرآن ما يعرض من شخصيات كنماذج بشرية فى مجال الحياة الخيرة أو الشريرة وفى صراعها مع الخير والشر ، وفى تجاوبها أو تعاندها مع الأخيار والأشرار ٠٠

إن الشخصية فى القصة القرآنية ، إنما ينظر إليها بهذا الاعتبار الذى يؤدى فيه دورها كشاهد من شواهد الإنسانية ، فى قوتها أو ضعفها ، وفى استقامتها أو انحرافها ، وفى هداها أو ضلالها وفى رشدها أو غيها ، وفى حكمتها أو سفاهتها ... إلى غير ذلك مما تندرج تحته عوالم الإنسانية ، وتتشعب فيه مذاهب سعيها ومسلكها فى مضطرب الحياة .

وكذلك الشأن فى الأحداث التى يعرضها القرآن فى قصصه .. إنها ليست إلا محاك اختبار تظهر فيها معادن الرجال ، وتختبر بها مواطن القوة والضعف فيهم ، ومنازع الإحسان والسوء منهم ..

لماذا التكرار فى القصص القرآنى ؟

من أجل هذا ، كان ذلك الذى نشهده فى القصص القرآنى ، من عرض الشخصية فى معارض كثيرة ، حيث تستدعيها الأحداث والمواقف .. فنجد كثيراً من الشخصيات تأخذ مواقف متعددة فى القرآن الكريم ، وذلك فى أزمنة متباعدة ، فى عرض القرآن لها ، حسب نزوله ..

ولو أن الشخصية كانت مقصودة قصداً لذكرت أحداثها ومواقفها فى معرض واحد .

فكنا نجد قصة موسى مثلا فى سورة واحدة ، وكذلك قصة إبراهيم وعيسى ونوح وغيرهم .. ولكن الذى كان هو أننا نرى الشخصية مع حدث من الأحداث تتفاعل معه ، وتمضى به إلى

غايتها فى موقفه منها أو موقفها منه ... ثم ينتهى المشهد ، ويطوى الموقف حتى إذا مضى زمن ـ طال أو قصر ـ طالعنا وجه الشخصية من جديد مع حدث آخر ، يأخذ دوره معه ، ثم يمضى ... وهكذا .

وعلى هذا ، فإن التكرار الذى يقال عنه فى القصص القرآنى ليس تكراراً للحدث ، ولا إعادة للواقعة بصورتها التى عرضت بها أولا ، بل إن أكثر القصص القرآنى تتكرر فيه الشخصية ولا تتكرر فيه الحادثة .

وإنما الذى دعا إلى القول بالتكرار فى القصص القرآنى ، هو ظهور الشخصية فى مواقف متعددة ، فوقع للنظرة المجردة من التعمق والتبصر أن ذلك من التكرار ، بل والتكرار الممل الذى لا تدعو إليه داعية ، من حال أو مقام .

هكذا يقول الذين أعماهم الجهل من أن يروا الحقيقة الواضحة من هذا التكرار .

إن الشخصية فى القصص القرآنى ليست مقصودة لذاتها ، ولو كان ذكر الأشخاص منظوراً إليه نظرة القصص التاريخى إلى شخصياته ، وعرضهم فى معارض البطولة .. فى أى مجال من مجالاتها .

وإنما الأحداث والوقائع .. أولا ، ثم الشخصيات التى تلبست بها أو لابستها الأحداث .. ثانيا .. لأن مناط العبرة والعظة إنما

هو فى الحدث ، وفى موقف الناس منه ، وتلقيهم لـــه ، مـــن بيـــن محسن ومسئ ، ومقبل ومعرض ، ومستقيم ومنحرف ٠٠

ومن خلال هذه المواقف التى يقفها المحسنون أو المسيئون مـن الأحداث تتكشف وجوه العبرة والعظة منها ٠٠ وهـــذا مـا جـاء القصص القرآنى من أجله [١].

ويؤكد الأستاذ عبد الكريم الخطيب أن القصـــص القرآنـــى لا يوجد فيه تكرار ٠ فيقول : " الحادثة هى مركز الدائرة فى القصص القرآنى ، والشخصية أو الشخصيات هى التى تحرك هذا المركـــز غالبا ، لتملأ به الفراغات كلها من المركز إلى المحيط ٠

والذى يتتبع القصص القرآنى يجد أن أحداثه كلها تقريبا تـــدور فى محيط الدعوة إلى الله ، وإلى تحرير العقيـــدة وتصفيتـــها مـــن العبودية لغير الله ، وتوجيهها إلى عبادة الإله الواحــــد ، الخـــالق ، رب العالمين ٠٠٠ ولذلك كانت دعوات الأنبياء هـــى الشـــخصية الغالبة فى القصص القرآنى ، بحيث ساغ أن يسمى القصص باســـم صاحب الدعوة فيقال : قصة يوسف ، وقصـــة موســـى ، وقصـــة يونس ، وقصة هود ، ونـــوح ، وصـــالح ، وآدم ٠٠ وهكـــذا ٠٠ والملحظ الذى نود أن نشير إليه هنا مرة أخرى ، هو أنه لو كـــانت الشخصية ــ لا الحادثة ــ هى مناط القصة ودافعها الأصلى لجاءت

---

(١) أنظر القصص القرآنى لعبد الكريم الخطيب ص ٤١ ، ٤٢ ٠

قصة كل نبى ، أو كل شخصية غير نبى فى موضع واحد من القرآن ، فى سورة أو بعض سورة ٠

ولما كانت هناك داعية لتقطيع حياة الشخصية إلى تلك الأجزاء الموزعة فى مواضع متباعدة فى القرآن ٠٠ ولكن إذا نحن اعتبرنا الحادثة لا الشخصية ــ هى محور القصة ــ لم نجد هذا التمزق فى الشخصيات وإنما نجد فى كل حادثة أو موقف قصة كاملة ، وإن كان هذا لا يمنع من أن نلتقى بالشخصية الواحدة فى أكثر من حدث ، وفى أكثر من موقف مع تباعد الزمان والمكان ٠ كما أن هذا لا يمنع من أن تقترن الأحداث المتماثلة ويجتمع بعضها إلى بعض فى مساق واحد ، وفى عرض متصل فى سورة أو بعض سورة ٠

وهذا ما نجده فعلا فى القصص القرآنى ٠

ففى أكثر من سورة من القرآن الكريم جمعت أحداث كثيرة لعدد من الأنبياء حيث تتماثل الأحداث ، وتتشاكل الوقائع ، وإن اختلفت الأزمنة والأمكنة ، وفى هذا الجمع بين دعوات الرسل ، وفى تشابه أقوامهم فى الكفر والعناد ما يعطى دلالة واضحة مؤكدة لما فى الإنسان من عناد وكنود ، وأن الإنسان هو الإنسان حيث اختلف زمانه ، ومكانه [1]،

وقد وجد أعداء الإسلام والملحدين فى تكرار القصص القرآنى مدخلاً ملتوياً يحاولون من خلاله الطعن فى كتاب الله والعياذ بالله والنيل من نوع من إعجازه وبلاغته ٠

---

(١) أنظر القصص القرآمنى ص ٤٣ ، ٤٤ ٠

فهم يدَّعون أن التكرار قد أدخل الإضطراب فى أسلوبه وهم يريدون بهذا أن يدعوا أن أسلوب القرآن الكريم ليس على المستوى البلاغى الرفيع ثم تمادوا فى هذا الضلال بإدعائهم أن هذا الخلط الذى وقع فيه ، إنما هو أثر من آثار الأحوال النفسية التى كانت تنتاب محمد ﷺ فتخرج به عن وعيه ، وتجئ الكلمات التى ينطق بها فى تلك الحال ، مرددة ، مقطعة .

والرد على ذلك بسيط : أن أعداء الإسلام إذا كانوا من العرب فقد أعماهم الزور ، وتعصبوا لدينهم وملتهم والقلوب المتحجرة أغفلت وعاندت الحقيقة ، وإن كانوا من الأعاجم فهم عاجزون أمام تصلتهم أن يفهموا معنى البلاغة العربية وان يتذوقوها ونسو ان قريش كانت أم البلاغة والفصاحة وقد تحداهم القرآن أن يماثلوه ولو بأقل سورة منه قال تعالى : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ [1].

ولكنهم وقفوا عاجزين كاتفى الأيدى . وإذا لم يكن لقريش أن نقول مثل هذا القول ، وهى مرجع الفصاحة والبلاغة وموطنهما ، فكيف يساغ هذا القول من الأعاجم الملحدين . بل إن أعدى أعداء الإسلام وهو الوليد بن المغيرة قال مقالته الشهيرة عندما سمع كلام الله : ﴿ **إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ما يقول هذا بشر** ﴾ [2].

---

(١) سورة يونس الآية ٣٨ .

(٢) إعجاز القرآن للمرحوم مصطفى صادق الرافعى .

ومن المعلوم لدينا أن التكرار فى القرآن الكريم وقـــع بصـــور شتى ٠٠ كالتكرار فى الجمل القرآنية مثل قولــــه تعـــالى ﴿ **كــلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون** ﴾ [1].

جاء فى تفسير الجامع لأحكام القرآن : ﴿ **كلا** ﴾ قال الفـــراء : أى ليس ، الأمر على ما انتم عليه من التفاخر والتكاثر والتمام على هذا ﴿ **كلا سوف تعلمون** ﴾ : وعيد بعد وعيد قاله مجاهد ٠

ويحتمل أن يكون تكراره على وجه التأكيد والتغليظ ؛ وهو قول الفراء ٠

وقال ابن عباس : ﴿ **كلا سوف تعلمون** ﴾ ما ينزل بكـــم مـــن العذاب فى القبر ﴿ **ثم كلا سوف تعلمون** ﴾ فى الآخرة إذا حل بكم العذاب ٠ فالأول فى القبر ، والثانى فى الآخرة ؛ فالتكرار للحـــالتين ٠ وقيل : ﴿ **كلا سوف تعلمون** ﴾ عند المعاينة ، أن ما دعوتكم إليـــه حق ٠ ﴿ **ثم كلا سوف تعلمون** ﴾ : عند البعث ، أن ما وعدتكم به صدق ٠

وروى زِر بن حبيش عن على رضى الله عنه ، قالـــه : كنـــا نشك فى عذاب القبر ، حتى نزلت هذه السورة ، فأشار إلى أن قولـــه : ﴿ **كلا سوف تعلمون** ﴾ يعنى فى القبور ٠ وقيل : ﴿ **كلا ســـوف تعلمون** ﴾ : إذا نزل بكم الموت ، وجاءتكم رسل لتنزع أرواحكم ٠

---

(١) سورة التكاثر الآية ٣ ، ٤ ٠

﴿ **ثم كلا سوف تعلمون** ﴾ إذا دخلتم قبوركم ، وجاءكم منكر ونكير ، وحاط بكم هول السؤال ، وانقطع منكم الجواب •

﴿ **ثم كلا سوف تعلمون** ﴾ فى القيامة أنكم معذبون • وعلى هذا تضمنت أحوال القيامة من بعث وحشر ، وسؤال وعَرْض ، إلى غير ذلك من أهوالها وأفزاعها ؛ ••• وقال الضحاك : ﴿ **كلا سوف تعلمون** ﴾ : قال المؤمنون • وكذلك كان يقرؤها ، الأولى بَالتاء والثانية بالياء [1].

أو بين أجزائها مثل قوله تعالى : ﴿ **فبأى ألاء ربكما تكذبان** ﴾ [2].

وقوله سبحانه : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ [3] أو يكون التكرار فالتكرار قد يكون فى الحرف أو الكلمة أو الآية فى إعادة تصوير الأحداث أكثر من مرة ، وهو ما حدث فى القصص القرآنى فقد تكرر معارض القصة الواحدة فى أكثر من موضع والتكرار فى القصص القرآنى هو موضوعنا هنا •

وهذا النوع من التكرار " **التكرار القصصى** " شغل كثير من العلماء ولفت أنظارهم إلى بعض الحكم والأسرار التى من أجلها حدث هذا التكرار •

---

(١) أنظر الجامع لأحكام القرآن ج ٢٠ ص ١٧٢ ، ١٧٣ •

(٢) سورة الرحمن ذكرت أكثر من مرة •

(٣) سورة المرسلات جزء من الآيات ١٥ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٤ ن ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ •

ولنعرض بعض الأقوال لبعض العلماء الذين تحدثوا عن بعض الحكم من التكرار فى قصص القرآن ٠

الأستاذ أبو بكر الباقلانى يقول : ـ

إن إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنى واحد من الأمر الصعب الذى تظهر فيه الفصاحة ، وتبين البلاغة " [١].

ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب تعليقاً على قول الباقلانى :

" وهو يريد بهذا أن يقول إن عرض الموضوع الواحد بأساليب مختلفة من القول دون أن تتغير معالمه ، دون ان يضعف أسلوب عرضه هو من العسير الذى لا يقدر عليه إلا من كان ذا ملكة بيانية ، واقتدار بلاغى ؛ وذلك فى حدود لونين أو ثلاثة من ألوان العرض ، فإذا جاوز ذلك اضطرب الأسلوب ، وبهتت المعانى ، إلا أن يكون ذلك من تدبير الحكيم العليم ، رب العالمين [٢].

ثم يقول الباقلانى : " وأعيد كثير من القصص القرآنى فى مواضع مختلفة ، على ترتيبات متفاوتة ، ونبهوا ــ أى العرب ــ بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله ، مبتدأ أو مكرراً " [٣].

ويوضح الأستاذ عبد الكريم الخطيب ما يريده الباقلانى ويقول : " ويريد الباقلانى بهذا أن يقرر أن من صور التحدى الذى

---

(١) أنظر إعجاز القرآن لأبى بكر الباقلانى ص ٤٣٦ ٠

(٢) القصص القرآنى ص ٢٣١ ، ٢٣٢ ٠

(٣) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٤٣٦ ٠

عجز عنه العرب إزاء القرآن ـ عرض القصص القرآنى ـ عرضا متفاوتا بين الطول والقصر ، والبسط والقبض ، وقد وسع عليهم بهذا مجال المعارضة والمحاكاة ، فلم يكن إلا العجز والستخزاء .

ويقول إن الباقلانى يريد بقوله " متفاوتة " أى أن التفاوت هو اختلاف صور العرض للقصة الواحدة بين الطول والقصر والتفصيل والإجمال .

ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب : " وهذا القول من الباقلانى لا يكشف عن السر الذى نراه فى التكرار الذى جاء فى القصص القرآنى [١].

ويقول الدكتور عبد الرؤوف مخلوف : " وكنا ننتظر من الباقلانى أن يعلل لمجئ القصة فى بعض السور مطنبة مطولة ، فيها تقريع وتفصيل ، ومجيئها فى بعضها الآخر وفيها إجمال وإشارة وتلميح ومجيئها ثالث فى بعض بعينها فى حين جاءت فى غيره وقد تبدلت هيئتها ، فاستبدلت كلمة بأخرى ، وقدمت جملة على أختها ، أو حذف منها أو أضيف إليها ، إلى آخر ما يمكن أن يضع اليد على وجه الصنعة فى الأسلوب القرآنى ، ولكن لم يفعل " [٢].

---

(١) القصص القرآنى ص ٢٣٢ .

(٢) أنظر الدراسة التحليلية النقدية لكتاب إعجاز القرآن للباقلانى ص ٤٣٦ .

الإمام الزركشي يقول : ــ

من التكرار القصصي القرآني ، قصة " إبليس " في إمتناعه السجود لآدم وقصة موسى ، وغيره من الأنبياء ٠٠ قال بعض العلماء : " ذكر الله موسى في القرآن في مئة وعشرين موضعا ٠٠ "

ثم يكشف الزركشي عن وجوهٍ لبعض أسرار هذا التكرار فيقول : " وإنما كررها ــ أي القصة ــ لفائدة خلت عنه في الموضع الآخر ، وهي أمور منها :

ــ أنه ــ أي القرآن ــ إذا كرر القصة زاد فيها شيئا ٠٠ ألا ترى أنه ذكر الحية في عصا موسى عليه السلام ، وذكرها في موضع آخر ثعباناً ؟

ــ إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة ، وأساليب مختلفة ــ لا يخفى ما فيه من الفصاحة ٠

ــ أن الله سبحانه وتعالى أنزل هذا القرآن ، عجز القوم عن الإتيان بمثل آيه ، لصحة نبوة محمد ﷺ ، ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم ، بأن كرر ذكر القصة في مواضع إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله ، بأي نظم جاءوا ، وبأي عبارة عبروا " [١].

ويعلق الأستاذ عبد الكريم الخطيب على كلام الإمام الزركشي فيقول : " والإشارة المقتضية التي أشار بها " الزركشي " وكأنها

---

(١) أنظر البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي ج ٤ ص ٣٧ ٠

جاءت عفواً ودون مبالاة فى قوله : إنــه ــ أى القــرآن إذا كــرر القصة فيها ــ هذه الإشارة هى فى نظرنا أبرز داعية من دواعـــى التكرار القصصى .

ولم يذكر " الزركشى " أين هى تلك الزيادة ؟ كما لم يذكر مــا لهذه " الزيادة " من قيمة فى عرض القصة ، وفى إبراز مــا يــراد إبرازه من أحداثها ، واكتفى بالقول : بأن القرآن كلما كرر قصـــة جاء فيها بجديد لم يكن موجوداً فى العرض الأول أو الثـــانى ، أو الثالث ، وهكذا .

ويقول : إن كل مرة تعرض فيها القصة تكشف عن جانب مــن جوانبها ، أو تجسم صورة من صورهـــا ، أو تكمــل حدثــا مــن أحداثها ... الأمر الذى لا يمكن أن يتم فى عرض واحد مســتقل ، دون أن يقع فى الأسلوب اضطراب ، وتناقض وثقل ، لهذا التكـرار المتصل ، ولاختلاف المقولات فيما يبدو أنه موقف واحد ..

ويقول أيضا فى ظاهرة تكرار القصص القرآنى ، وفـــى كــل تكرار فى القرآن تختلف فيه الصور للحدث الواحد ــ هى أن هــذه الصور المتكررة يكمل بعضها بعضا ، وأنها فى مجموعها تعطـــى صورة واضحة كاملة مجسمة أو شبه مجسمة للحدث ، وأن ما يبدو من انه اختلاف بين المقولات فى الواقعـــة الواحـــدة ، أو الحـــدث الواحد ليس إلا تجميعا لمتناثر الأقوال عن هـــذه الواقعـــة أو ذلــك

الحدث ، أو ليس إلا التقاط لظاهر القول ، ثم لما يكمن وراءه من خواطر وخلجات " [1].

وضرب لنا الأستاذ الخطيب مثالاً جمع فيه ثلاث صور لقصة موسى ـ عليه السلام ـ ، فى الموقف الخاص بمناجاته فى الطور ، وتلقيه الدعوة السماوية هناك ـ ووضح لنا من مجموع ما فى الصور الثلاث التى جاءت فى سورة طه ، والنمل ، والقصص يعطينا صورة مكتملة لما حدث ، وأن كل صورة تعطينا صورة مستقلة بنفسها تكشف عن جانب من الحدث وبالتالى فى كل جزئية من جزئيات القصة الكبيرة معنى وفائدة لا توجد فى الجزئيات الأخرى وتكتمل الفائدة الكبرى باكتمال جزئيات القصة .

ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب " وأحسب أن القول بأن فى القصص القرآنى تكراراً .. أن هذا القول ضرب من الهزل أو الجهل ، ولون من ألوان الضلال أو التضليل " [2] .

ونستطيع أن نقول إن القرآن الكريم اشتمل على كثير من القصص الذى تكرر فى عدة مواضع للقصة الواحدة فى صور مختلفة مع التقديم والتأخير والإيجاز والإطناب وغير ذلك وعلمنا أن كل مرة تذكر فيها القصة .يتبين لنا الحكمة من ذكرها ونستطيع

---

(١) القصص القرآنى ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

(٢) أنظر القصص القرآنى ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

أن نذكر بعض الحكم التى من أجلها تكرر القصص القرآنـــى فـــى أكثر من موضع للقصة الواحدة ، **منها** :

١ ـ بيان قوة إعجاز القرآن الكريم حيث عرض صـــور متعـددة لقصة واحدة فكان غاية فى التحدى لإظهار عجز أهل البلاغة والفصاحة وهم العرب ،

٢ ـ بيان بلاغة القرآن الكريم فرغم تكرار القصة فى أكـثر مـن موضع إلا أن الإنسان يتشوق لقراءتها ولا يمل من ســماعها بل فى كل مرة يشعر بأنه علم الجديد والجديـد وقـد تنـوع الأسلوب فى عرض القصة فى كل مرة لأن الكلام لا يحسـن إذا كان على نمط واحد لما فيه من التكلف والشعور بالملل ،

٣ ـ أن التكرار أحد طرق التأكيد ودليل على الإهتمـام بـالأمر ، فتكرار القصة يكون دليلاً على أهميتها ولفت النظر لما فيـها من عبر ومواعظ تأخذ مكانها من نفس الإنسان ،

٤ ـ اختلاف الغاية التى تساق من أجلها القصة فتذكـر فـى مكان لتبرز جانبا منها ففى قصة موسى مع فرعون نجد أن القصـة ذكرت فى عدة سور وفى كل مرة تبين القصة الغاية التى ذكـرت من أجلها والأمثلة على ذلك كثيرة واضحة ولا يسعنا المجال هنـا لذكرها ،

المبحث الخامس
القصص القرآنى حقيقة لا خيال

لقد انخدع بعض الدارسين بكلمة " قصص " التى جعلها القـرآن عنوانا دالاً على ما ذكر فيه من سير الأولين وأخبار الغـــابرين ـ فوقع لفهم هؤلاء أنهم قد يكونون فى المجتهدين ـ فى الإســـلام ـ أو المجددين فى الأدب إذا هم أخذوا القصـــص القرآنـــى بمعـــايير القصص الأدبى بما فيه من تلفيقات الوهم والخيال ٠٠ ثـــم جرهـــم هذا أو جرأهم على القول بأن القصص القرآنى ليـــس كلـــه حقـــا وصدقا ، إذ ليس الحق والصدق من مقاصده ، وإنما هـــو مســـوق للإشارة الفنية التى تجئ من ورائها العبرة والعظة ، وأنه لا إثـــارة للفن إذا التزم حدود الحق والصدق ٠٠ إذ أن الفـــن فـــى صميمـــه حرية ، ولا حرية مع إلزام والتزام ٠

وقد اندفع أصحاب هذا الرأى إلى أبعد من هذا فقايسوا بيـن الله وبين الإنسان ، فما لله ـ فى حسابهم هنا ـ إلافتان ينزل على حكم الضرورة والقصور ، فيسوى قصصه على نحو ما يسوى الفنـــانون قصصهم ٠٠ من مزجها الحقيقة بالخيال ، والواقع بالوهم والمحال !

وهذه المقولات فوق أنها عدوان على الحق فى جانب الله ، وما ينبغى لذاته وكلماته من تنزيه وتقديس عن نقائض البشر وقصورهـم ـ هى عدوان صارخ على الفن وما ينبغى له من تصون عن التلفيق ، والكذب والتمويه ٠ إذا الفن بمعنى هذه الكلمة ـ نسيج محكم مـــن

صميم الحق ، ورحيق مصفى من لباب الواقع أو المتوقع ، وبغير هـذا لا يكون العمل الفنى فنا رفيعا يأخذ مكان البقاء والخلود !! " [١].

ويقول إن القصص القرآنى : " كل مواده من أناس وأشـياء ، وزمان ، ومكان ٠٠ كلها من بين يدى الواقع المصفى ، الـذى لا تشوبه شائبة من خداع أو وهم ، أو نسيان ٠

ولهذا ، فكل شئ فى الحدث القصصى القرآنى ، له وجود ذاتى وله تاريخ ، وله صفات قام عليها ، وإسم عرف به ٠

ولهذا أيضا ، فإنه إذا ذكـر القـرآن فـى قصصـه أسـماء الأشـخاص فإنمـا يذكـر شـخصية تاريخيـة معروفـة ، وقـد ذكرتها الكتب المقدسة مـن قبـل ، أو حفظـها تـاريخ الجماعـة التى عاشت فيها تلك الشخصية أو أنـها ضـاعت مـن حافظـة التاريخ ، وبقى علمها عند العليـم الخبـير ٠٠

فقد ذكر القرآن الكريم أسماء كثير من الأنبياء الذين ذكرتـهم الكتب السماوية ، كما ذكر بعض الأسماء لشخصيات تحدت دعـوة السماء ، وحادّت الله ورسوله ، كفرعون ، وهامان ، والسـامرى ، وجالوت ٠٠ وهو إذ يذكر مثل هذه الأسماء فإن الوجود كله شـاهد على وجودها ، فإن أنكرها أو جهلها بعض المعاندين والمكـابرين ، فإن الواقع يحتفظ بها ليوم يؤمـن فيـه المنكـرون ، ويعلـم فيـه الجاهلون ٠

---

(١) القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه ص ١١ ، ١٢ ٠

ومن هنا فلا يكون هناك من ينازع فيها ، أو يقول مثل هذه المقولة الضالة : ﴿ **إن هذه إلا أساطير الأولين** ﴾ (١) .

فإن وجد فى الناس من يستبد به العناد والضلال فينكر الشمس فى كبد السماء ، ويقول عن هذا القصص : إنّ هذا إلا أساطير الأوليين ـ إن وجد ذلك الشخص ، فإن قولته تلك لا تجاوز موقع قدميه ، بل تسقط على الأرض خجلا ، وخزيا مما تنادى به شواهد التاريخ على كذب تلك القولة وضلالها " (٢).

ومن الجدير بالذكر ذكر الرسالة التى نوقشت لنيل درجة العالمية الدكتوراه فى الأدب وموضوعها :

" **الفن القصصى فى القرآن " لصاحبها الدكتور / محمد أحمد خلف الله** .

وهى رسالة قيل عنها : إنها رسالة غير عادية بل رسالة خطيرة أساسها أن القصص القرآنى عمل فنى كأى عمل أدبى فنى خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام لصدق التاريخ ، والواقع أن محمدا فنان بهذا المعنى ، ثم قال : " وعلى هذا الأساس كتب الرسالة من اولها إلى آخرها " .

ونقد الكثير من رجال الحق هذه الرسالة دون تجريح فى شخصية صاحبها أو اتهامه والعياذ بالله بالكفر فهو مؤمن بالله وبكل

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٨٣ .

(٢) انظر القصص القرآنى ص ٩٦ ، ٩٧ .

ماله ــ سبحانه ــ من صفات الكمال ، التى منها العلم أى أن علم الله محيط بكل شئ ، ولكنه يرى أن ذلك من مقتضيات الفن التى ينبغى أن ينزل القرآن على حكمه ومن العبارات التى ذكرت فى الرسالة : ــ

" ادعاء صاحب الرسالة أن القصة فى القرآن تلتزم الصدق التاريخى ، وإنما يتجه الأديب فى تصوير الحادثة تصويراً فنياً ، وزعمه أن القرآن يختلق بعض القصص وأن الأقدمين أخطأوا فى عد القصص القرآنى تاريخا يعتمد عليه ... " [١].

ويقول الأستاذ / عبد الكريم الخطيب [٢] " وهذا التناول الذى تناول به الدكتور خلف الله القصص القرآنى قد سمح له بأن يقول فى هذا القصص أقوالا تنزع عنه صفة الصدق الذى له ، والذى لا ينفصم عنه أبداً ، ثم تلحقه هذه الأقوال بالقصص الأسطورى أو التمثيلى والتخييلى ... وأن القرآن لم يكن فى عرضه للأحداث ينظر إليها من حيث واقعها ، وإنما كان يحدث بها على الوجه الذى يعلمه من أهل الكتاب ، سواء كان هذا العلم مما فى أيديهم من كتب ، أم مما راج عندهم من أساطير " .

---

(١) أنظر نقد كتاب " الفن القصصى فى القرآن " للأستاذ محمد الخضر حسين بلاغة القرآن ص ٩٤ .

(٢) القصص القرآنى ص ٢٨٢ ، ص ٢٨٥ .

ثم ذكر لنا بعض العبارات التى ذكرها صاحب الرسـالة فـى رسالته منها : ـ

" والظاهرة التى يحسن بنا الالتفات إليها فى هذا المقام ، هـى أن القرآن حين جعل هذه الأخبار ـ أى التى وردت فى قصصه من آيات النبوة ، وعلامات الرسالة ـ جعلها أيضا مطابقة لما فـى الكتب السابقة أو لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار . حتـى ليخيل إلينا أن مقياس صدقها وصحتها من الوجهة التاريخية ، ومن جهـة دلالتها على النبوة والرسالة أن تكون مطابقة لما يعرفه أهل الكتـاب من أخبار .. قال تعالى بعد ذكره لقصة موسى وفرعون : ﴿ **فـإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلـك لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تكون من الممترين** ﴾[١] " [٢] .

ويرد عليه الأستاذ الخطيب ويقول : " وهنا ينبغى أن نقـف مـع صاحب الرسالة عند هذا الرأى الخطير .. وهو رأى لـم يكـن مـن مبتكرات الدكتور خلف الله ، وإنما هو يتـابع فـى هـذا آراء بعـض المستشرقين الذين لا يدخل فى تصوراتهم أن القرآن كـلام الله ، تلقـاه محمد صلوات الله وسلامه عليه وحيا ، نزل به الروح الأمين على قلبه .

وإنما أعدل آرائهم فى القرآن أنه من عمل محمد ، وانه جمـع مادته مما كان يدور فى الحياة من حوله ، من أخبار تجرى علـى

(١) سورة النساء الآية ١٥٧ .

(٢) أنظر رسالة الدكتوراه " الفن القصصى فى القرآن ص ٣٣ " .

ألسنة الأحبار والرهبان ، تلقى بعضها فى أسفاره ، وعرف البعض الآخر من بعض الأحبار الذين كانوا يقيمون فى مكة ٠

ثم قال إن الدكتور خلف الله يتابع فى هذا الرأى جماعة المستشرقين ، ويأخذ بوجهة نظرهم فى القرآن الكريم ٠٠٠ من حيث أن مادته مستقاة من معارف اليهود والنصارى ، وإن يكن من كلام الله ٠

يقول جولد تسيهر (١) : " إذن ما كان يبشر به محمد خاصاً بالدار الآخرة ليس إلا مجموعة مواد استقاها بصرحة من الخارج يقينا ، وأقام عليها هذا التبشير ٠

ثم يقول : أفاد ــ أى النبى ــ من تاريخ العهد القديم ، وكان ذلك فى أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء " ٠

ويقول أيضاً : " فتبشير النبى العربى ليس إلا مزيجاً منتخبا من معارف وآراء دينية عرفها واستقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التى تأثر بها تأثراً عميقاً ، والتى رآها جديدة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بنى وطنه " ٠

ويعلق الأستاذ الخطيب على هذا ويقول : " أليس ذلك الذى يقوله الدكتور خلف الله هو من هذا الذى يقوله جولد تسيهر ؟

وبلى !

---

(١) أنظر العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر ، ترجمة المرحوم الدكتور محمد يوسف موسى وزميله ص ١٢ ، ١٥ ٠

فهو يرى أن القصص القرآنى إنما جاء بأخباره ووقائعه وأحداثـــه على سمت ما كان يدور منها فى محيط أهل الكتاب وخاصة اليـــهود ، سواء كان محصلها مما فى أيديهم من كتب أو أحاج وأساطير " [1].

وفى النهاية نستطيع أن نقول أن قصص القرآن الكريم ليـــس من أساطير الأولين وليس القصص مجرد أحداث تروى ولا خيـــال يقص للإثارة ، والمسلم الحق هو الذى يؤمن بأن القرآن كـلام الله ، وأنه منزه عن ذلك التصوير الفنى الـــذى لا يعنـــى فيـــه بـــالواقع التاريخى ، وليس قصص القرآن إلا الحقائق التاريخية تصاغ فـــى صور بديعة من الألفاظ المنتقاه ، والأساليب الرائعة .

وليس القصة فى القرآن الكريم خيال يعتمد على التصور وانـــه كلما ارتقى خيالها ونأى عن الواقع كثر الشوق إليـــها ، ورغبـــت النفس فيها ، واستمتعت بقرائتها .

والقرآن الكريم تنزيل رب العالمين ، ولا يرد فى أخباره إلا ما يكون موافقا للواقع والله تعالى هو الحق :

﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعـــون مـــن دونـــه هـــو الباطل ﴾ [2]

وكذلك أرسل رسوله بالحق : **﴿ يا أيها النـــاس قـــد جـــاءكم الرسول بالحق من ربكم ﴾** [3].

---

(١) أنظر القصص القرآنى ص ٢٨٦ ، ص ٢٨٧ .

(٢) سورة الحج الآية ٦٢ .

(٣) سورة النساء الآية ١٧٠ .

المبحث السادس
أساليب التربية فى القصص القرآنى

من المعهود أن النفس تميل للقصة وتصغى إلى روايتها وتعى كل ما يدور فيها فهى ظاهرة فطرية ٠

والإسلام يقدم لنا منهجا تربويا متكاملاً أساسه العقيدة ، يجد فيه المسلم علاجا شافيا لكل المشكلات وان التربية بالقصص القرآنى من أساليب التربية الإسلامية ٠

والقصة القرآنية وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة التى ترمى وتهدف إلى تحقيق أغراضه الدينية الربانية ، الأغراض التوجيهية فهى إحدى وسائل الدعوة الإسلامية ٠

وقبل أن أتحدث عن المميزات التربوية للقصص القرآنى أحب أن **أوضح أولا مفهوم التربية** ٠

وسأبدأ أولا بتعريف التربية فى اللغة ثم فى اصطلاح علماء الإسلام ٠

أولاً : التربية فى اللغة :

تشير معاجم اللغة العربية على أن لكملة التربية أصولاً لغوية ثلاثة :

الأصل الأول : تربا يربو بمعنى زاد ونما وفى هذا المعنى نزل قوله تعالى : ﴿ **وما آوتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله** ﴾ [1].

---

(١) سورة الروم الآية ٣٩ ٠

والأصل الثانى : ربى يربو على وزن خفى يخفى ومعناهـــا : نشأ وترعرع .

الأصل الثالث : ربَّ يُربَ مدّ يمدّ بمعنـــى أصلحــه ، وتولـــى أمره ، وساسه وقام عليه ورعاه .

ثانيا : التربية فى اصطلاح العلماء

ومن الأصول الثلاثة السابقة اشتق العلماء تعريفات للتربية منها :

" الرب فى الأصل التربية وهو إنشاء الشئِ حالا فحالاً إلى حـد التمام " [1] .

وقال الإمام البيضاوى : " الرب فى الأصل بمعنى التربية وهـــى تبليغ الشئ إلى كماله شيئا فشيئا ، ثم وصف به تعالى للمبالغـــة " [2].

وكلها تعريفات متقاربة .

ثانيا : الميزات التربوية للقصص القرآنى :

١ ــ تشد القصة القارئ ، وتوقظ انتباهه ، دون توان أو تـــراخ ن فتجعله دائم التأمل فى معانيها والتتبـــع لمواقفـــها ، والتـــأثر بشخصياتها وموضوعاتها حتى آخر كلمة فيها .

ذلك ان القصة تبدأ غالبا ، وفى شكلها الأكمل ، بالتنويه بمطلب أو وعد أو الإنذار بخطر ، أو نحو ذلك مما يسمى عقدة القصـــة ، وقد تتراكم ، قبل الوصـــول إلـــى حـــل هـــذه العقـــدة ، مطـــالب

---

(١) أنظر مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص

(٢) تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوى ج ص

أومصاعب أخرى ، تزيد القصة حبكا ، كما تزيد القارئ أو السامع شوقا وانتباها ، وتلهفا على الحل أو النتيجة .

ففى مطلع قصة يوسف ، مثلا تعرض على القارئ " رؤيا يوسف عليه السلام " يصحبها وعد من الله ، على لسان أبيه ، بمستقبل زاهر ونعم من الله يسبغها على هذه الأسرة الفقيرة ، الداعية إلى الله . ونتتابع المصائب والمشكلات على بطل القصة " يوسف عليه السلام " ويتابع القارئ اهتمامه ينتظر تحقيق وعد الله ، ويترقب انتهاء هذه المصائب والمشكلات بتلهف .

٢ ـ تتعامل القصة القرآنية والنبوية مع النفس البشرية فى واقعيتها الكاملة ، متمثلة فى أهم النماذج التى يريد القرآن إبرازها للكائن البشرى ، ويوجه الاهتمام إلى كل نموذج بحسب أهميته ، فيعرض عرضا صادقا يليق بالمقام ويحقق الهدف التربوى من عرضه ، ففى قصة يوسف يعرض نموذج الإنسان الصابر على المصائب فى سبيل الدعوة إلى الله " فى شخص يوسف " .

ونموذج المرأة المترفة تعرض لها حبائل الهوى فيملأ قلبها الحب والشهوة ، ويدفعها إلى محاولة ارتكاب الجريمة ، مم أدى إلى سجن إنسان برئ مخلص ، لا ذنب له إلا الترفع عن الدنيا والإخلاص لسيده ، ومراعاة أوامر ربه .

ونموذج إخوة يوسف : تدفعهم هواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمناورة ومواجهة آثار الجريمة والضعف والحيرة أمام هذه المواجهة .

ونموذج يعقوب : الوالد المحب الملهوف والنبى المطمئن الموصول .

يعرض القرآن كل هذه النماذج البشرية عرضا واقعيا نظيفا من غير إفحاش ولا إغراء بفاحشة أو جريمة ، كما يفعل مؤلفو القصص التى يسمونها واقعية أو طبيعية ، من رواد جاهلية القرن العشرين ، ذلك أن من أهم غايات القصة القرآنية : التربية الخلقية عن طريق علاج النفس البشرية علاجا واقعياً .

فالقصة القرآنية ليست غريبة عن الطبيعة البشرية ، ولا محلقة فى جو ملائكى محض ، لأنها إنما جاءت علاجا لواقع البشر ، وعلاج الواقع البشرى لا يتم إلا بذكر جانب الضعف والخطأ على طبيعته ، ثم يوصف الجانب الآخر الواقعى المتسامى الذى يمثله الرسل والمؤمنون ، والذى تؤول إليه القصة بعد الصبر والمكايدة والجهاد والمرابطة ، أو الذى ينتهى عنده المطاف لعلاج ذلك الضعف والنقص ، والتردى البشرى فى مهاوى الشرك أو حمأة الرزيلة ، علاجا ينهض بالهم ، ويدفع بالنفس للسمو ، ما استطاعت ، إلى أعلى القمم ، حيث تنتهى القصة بانتصار الدعوة الإلهية ،

ووصف النهاية الخاسرة للمشركين الذين استسلموا إلى الضعف والنقص ، ولم يستجيبوا لنداء ربهم فيزكوا أنفسهم •

٣ ــ تربى القصة القرآنية العواطف الربانية وذلك :

أ ــ عن طريق إثارة الانفعالات كالخوف والترقب ، وكالرضا والارتياح والحب ، وكالتقزز والكره ، كل ذلك يثار فى طيات القصة بما فيها من وصف رائع ووقائع مصطفاة ، فقصة يوسف مثلا تربى الصبر والثقة بالله ، والأمل فى نصره ، بعد إثارة انفعال الخوف على يوسف ، ثم الارتياح إلى استلامه منصب الوزارة •

ب ــ وعن طريق توجيه جميع هذه الانفعالات حتى تلتقى عند نتيجة واحدة هى النتيجة التى تنتهى إليها القصة فتوجه مثلا حماسة قارئ القصة نحو يوسف وأبيه ، حتى يلتقيا فى شكر الله فى آخر القصة ، ويوجه بُغْض الشر الذى صدر عن إخوة يوسف حتى يعترفوا بخطئهم ويستغفر لهم أبوهم فى آخر القصة وهكذا •••

ج ــ وعن طريق المشاركة الوجدانية حيث يندمج القارئ مع جو القصة العاطفى حتى يعيش بانفعالاته مع شخصياتها ففى قصة يوسف يعترى القارئ خوف أو قلق عندما يراد قتل يوسف ، والقاؤه فى الجب ، ثم تنسرح العواطف قليلا مع انفراج الكربة عنه ، ثم يعود القارئ إلى الترقب عندما يدخل يوسف

دار " العزيز " وهكذا يعيش القارئ مع يوسف فى سجنه وهو يدعو إلى الله ، حتى يفرج بإنقاذه ، ثم بتوليه وزارة مصر ، وبنجاة أبيه من الحزن ، وهو فى كل ذلك رسول الله والداعية إلى دينه .

٤ ـ تمتاز القصة القرآنية بالإقناع الفكرى بموضوع القصة .

أ ـ عن طريق الإيحاء ، والاستهواء والتقمص ، فلولا صدق إيمان يوسف لما صبر فى الجب على الوحشة ، ولما ثبت فى دار امرأة العزيز على محاربة الفاحشة والبعد عن الذلل ، هذه المواقف الرائعة توحى للإنسان بأهمية مبادئ بطل القصة وصحتها ، وتستهويه صفات هذا البطل وانتصاره بعد صبر ومصابرة طويلة ، فيتقمص هذه الصفات حتى إنه ليقلدها ولو لم يقصد إلى ذلك ، وحتى إنه ليردّدُ بعض هذه المواقف ويتصورها ويسترجعها من شدة تأثره بها .

ب ـ عن طريق التفكير والتأمل : فالقصص القرآنى لا يخلو من محاورات فكرية ينتصر فيه الحق ، ويصبح مرموقا محفوفا بالحوادث والنتائج التى تثبت صحته ، وعظمته فى النفس وأثره فى المجتمع ، وتأييد الله له . ففى قصة يوسف نجد حواراً يدور بينه وبين فتيين عاشا معه فى السجن فدعاهما إلى توحيد الله .

وقصة نوح كلها حوار بين الحق والباطل ، وكذلك قصة شـــعيب ، وصالح وسائر الرسل : حوار منطقى مدعوم بالحجـــة والبرهـــان يتخلل القصة ، ثم تدور الدوائر على أهل الباطل ويظهر الله الحـــق منتصراً فى نتيجة القصة ، أو يهلك الباطل واهله ، فيتظاهر الإقناع العقلى المنطقى والإثارة الوجدانيـــة ، والإيحـــاء وحـــب البطولـــة " الاستهواء " والدافع الفطرى إلى حب القـــوة وتقليـــد الأقويـــاء ، تتظاهر كل هذه العوامل وتتضافر ، يؤيدها التكرار مرة بعد مـــرة ، فما أكثر التصور الربانى للحياة وللعقيدة واليوم الآخر وإلى معرفـــة كل جوانب الشريعة الإلهية معرفة إجمالية وإلى تربيـــة العواطـــف الربانية من حب فى الله ، وكراهية للكفر وحماسة لدين الله ولحماتـــه ، ولرسل الله وولاء الله وانضواء تحت لوائه ، وإلى السلوك المســـتقيم وفق شريعة الله ، والتعامل حسب أوامره ، وبهذا تحيـــط القصـــة القرآنية نفس الناشئ بالتربية الربانية من جميـــع جوانبـــها العقليـــة والوجدانية والسلوكية [1].

ومن ذلك يتبين لنا أن للقصص القرآنى دور كبير فى التربيـــة والتهذيب والطفل يميل بفطرته إلى سماع القصة وهـــذه الظـــاهرة الفطرية النفسية ينبغى للمربيين أن يفيدوا منها فى مجالات التعليم لا لا سيما التهذيب الدينى ، وهو أساس التعليم ومنبع التقويم .

---

(١) أنظر أصول التربية الإسلامية واساليبها من ص ٢٣٤ ـ ٢٣٨ .

ويستطيع المربى أن يصيغ القصة الدينية للطفل بالأسلوب الذى يلائم مستواه العقلى ففى كل مرحلة من مراحل العمر تتطلب أسلوبا يختلف ويغاير المرحلة الأخرى فيندرج المربى تدريجيا حتى يصل إلى الغاية التى يريدها من القصة وبالتالى تكون القصة حققت جانبا تربوياً لا يستطيع المربى إيصاله للطفل عن أى طريق أفضل مما أستطاع إيصاله عن طريق القصة .

وقد ألف الكثير من المفكرين قصص دينى للاطفال ونذكر هنا على سبيل المثال ما قدمه " الجارم " من القصص القرآنى فى أسلوب رائع سهل مفيد .

الفصل الثانى

نماذج تطبيقية

من القصص القرآنى

وفيه مباحث :

المبحث الأول : قصة الذبيح إسماعيل ·

المبحث الثانى : قصة أصحاب الجنة ·

المبحث الثالث : قصة ابن أم مكتوم ·

المبحث الرابع : قصة أصحاب الأخدود ·

المبحث الخامس : قصة ناقة صالح ·

المبحث السادس : قصة أصحاب الفيل ·

المبحث الأول

قصة الذبيح

قال تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ(١٠٠)فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ(١٠١)فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ(١٠٢)فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ(١٠٣)وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ(١٠٤)قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١٠٥)إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ(١٠٦)وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ(١٠٧)وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ(١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ(١٠٩)كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١١٠)إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(١١١)﴾ سورة الصافات ١٠٠ ـ ١١١ .

تروى لنا كتب السيرة والتفسير [١] أن سيدنا إبراهيم الخليل عندما ترك ديار قومه مهاجراً بزوجته ساره وابن أخيه لوطا ومن آمن معه إلى بلاد الشام حيث هداه الله إليها كما هداه لنور الإيمان ، ولما وصل إلى بلاد الشام وهجر الأهل توجه إلى المولى عز وجل طالبا منه على سبيل الترجى أن يهبه ولداً من صلبه يستأنس به

---

(١) انظر ابن كثير جـ ٤ ص ١٤ وقصص الأنبياء لابن كثير ص (١٤٦ ـ ١٥٠) وقصص الأنبياء د / عبد الوهاب النجار (١٣٣ ـ ١٣٦) .

ويكون عونا له فى الحياة • فقال ابراهيم : ﴿ **رب هب لــــى مــن الصالحين** ﴾ أى أعطنى وارزقنى ولداً يكون هبة وعطية ومنحـــه واجعله من عبادك الصالحين •

يقول الإمام الزمخشرى : " وأنه يكون حليما ، وأي حلم أعظـم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال : ﴿ **ستجدنى إن شـــاء الله من الصابرين** ﴾ ثم استسلم لذلك " [١] فاستجاب الله له وبشـــره بغلام حليم وهو نبى الله إسماعيل على الأرجح لأنه أول من ولد لـــه وكان من زوجته هاجر الجارية المصرية التى وهبتها سارة له •

فإن بكره إسماعيل الولد الأول الذي جاء بعد شوق وانتظـــار ، فقد روى أن عمر سيدنا إبراهيم عند مولد سيدنا إسماعيل كان علـى رأس ست وثمانين سنة [٢] •

وتخبرنا بعد ذلك الآيات عن الموقف العظيم والاختبار الصعب الذي مر به سيدنا إبراهيم وهو بعد أن شب الولد وصار يسعى معه سعى الرجال قال تعالى : ﴿ **فلما بلغ معه السـعي** ﴾ رأى ســيدنا إبراهيم رؤيا ، ورؤيا الأنبياء حق يقول ابن عبـــاس عـــن رســـول الله ﷺ " رؤيا الأنبياء وحى " [٣] أنه يؤمر بذبح ولـــده يالـــه مـــن موقف صعب يؤمر بذبح ولده الذي جاءه فى الكبر بعد أن أمر أولاً

(١) أنظر الكشاف للزمخشرى جـ ٣ ص ٣٤٧ •

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ١ ص ١٤٨ •

(٣) الحديث طويل فى صحيح لإمام البخاري ج ١ كتاب الوضوء ص ٤٧ •طبعـة الشعب •

صعب يؤمر بذبح ولده الذي جاءه فى الكـــبر بعـد أن أمـر أولاً بإسكانه وأمه فى مكان لا نخل فيه ولا زرع ولا ماء ولا أهـل ولا ونس فامتثل لأمر وهيأ الله للوليد وأمه المكان وجعل الله لهما بعـد الضيق فرجاً ورزقهم من حيث لا يحتسبوا .

هنا يؤمر بذبح ولده الوحيد وما كان من الأب المؤمـن إلا أن يمتثل لأمر الله فهو حسبه . إنها محنته تنوء بها الجبال ، ولكن على قدر أهل العزم تؤتى العزائم استجاب سيدنا إبراهيم لأمر ربه .

وانطلق خليل الله إبراهيم بابنه فى الشعب بجوار جبـل ثبـير بمنى . وفى أثناء سيره تمثل له الشيطان فى صورة شيخ ليمنعه . ويغويه عن تلبيه أمر الله قائلاً إن الذي رأيته جاءك بـه الشـيطان وهنا عرفه نبى الله إبراهيم ، عرف أنه إبليـس اللعيـن وزجـره وأمسك بسبع حصيات ورجمه بها .

ولما يئس إبليس من خليل الله انطلق إلـى الابـن فاعترضـه ليغويه ويصرفه عن مساعدة أبيـه فـى طاعـة أمـر ربـه إنـه موقف صعـب حيـث تأبـاه النفـس البشـرية وهـو أن يسـاق الإنسان للذبح ولكن ثقة وإيمان إسماعيل أن أبيه لـم يفعـل ذلـك كراهيه فيه بل هو مأمور ممن لا يرد أمـره . فعلـم الولـد أنـه إبليس يريد صرفه عن طاعة أبيـه وتنفيـذ أمـر ربـه فرجمـه كذلك بسبع حصيات حتى ذهـب .

ووقتها لم يجد عدو الله إبليس إلا أم إسماعيل ٠

الأم التى كاد قلبها ينفطر عندما فقـدت المـاء والـزاد وهـو صغير ، ولكن علمها بأن زوجها إبراهيم لم يتركها فى هذا المكـان القحل إلا بأمر الله صبرت حتى أتاها رزقها من حيث لا تحتسب ٠ وجعل أفئدة من الناس تهوى إليها وعمر الكون مـن حولـها هـي وابنها جاء إليها ليغويها مخبراً لها بأن أباه يريد ذبحه وأنه يزعم أن الله أمره بذلك وما كان منها إلا أن تقول إن كان الله أمره بذلك فلـن يضيعنا واستسلمت لأمر الله ، وأمسكت بسبع حصيات ورجمت بهم إبليس اللعين وتتمثل قوة الإيمان بالله وتنفيذ أوامره من خلال موقف الأسرة المؤمنة الصابرة التى يهون أمامها أي شئ فى سبيل رضـا الله وطاعته حتى ولو كان فلذة كبدها واختلفت الروايات فـى مـن الذي بدأ به إبليس فى الإغواء فذكرت بعض الكتب أن إبليس بـدأ بسيدنا إبراهيم ثم بابنه إسماعيل وختم بهاجر ، وذكـر البعـض أن إبليس بدأ بالأم ثم الابن ثم الأب وذكرت الكتب الأخرى أن إبليـس كان يراجع إبراهيم ويحاول إغوائه وفى كل مرة كان ملـك يـأمر سيدنا إبراهيم يأمر الله برجم إبليس (١) ٠

فاختلفت الروايات ولكن كل ما يعنينا فى هذا الأمر أنـه كـان هناك رجماً لإبليس وكان الرجم على ثلاثة مراحـل لذلـك يبـدأ

---

(١) انظر معالم التنزيل للإمام البغوى ج٤ ص ٢٩ ٠ ولباب التأويل للخـازن ج٦ ص ٢٩ وتفسير الإمام الألوسى ج٢٣ ص ١٣٢ وغيره من كتب التفسير ٠

الحجيج الرجم من الجمرة الصغرى ثم الوسطى ثم الكبرى وتصور لنا الآيات كيف عرض الأب الكبير على الابن الوحيد الأمر وكيف أخبره بما رأى قال تعالى : ﴿ **يا بنى إني أرى فى المنام أني أذبحك فأنظر ماذا ترى** ﴾ يناديه بالبنوة ويذكره بها ليعلم الولد أنه اعز ما فى الوجود عند أبيه وأن هذا الأمر من عند علام الغيوب ولا يحق لأحد أن يتراجع فيه وإخبار سيدنا إبراهيم لابنه ليس لأخذ المشورة أو الرأى ولكن للتبليغ لتنفيذ الأمر •ومحال أن تكون المشاورة ليرجع عن رأيه إذا لم يستجب ولده لأمر الله •

ويالها من روعة تتمثل فى إجابة الولد ، ومدى طاعته لأبيه وخالقه قال تعالى : ﴿ **يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين** ﴾ جواب سديد من ابن يعلم أن الأمر من السماء ويعلق الاستجابة على مشيئة الله عز وجل تبركاً وإقراراً منه بأنه لا حول ولا قوة إلا بالله فهو المعين له على تنفيذ أمره إن أراد ، أنه سيكون إن شاء الله من الصابرين •

وجاءت اللحظة الفاصلة التى تحتبس فيها الأنفاس وتضعف فيها القلوب قبل الأجسام ، جاءت لحظة التنفيذ تنفيذ أمر الله ، ويالها من لحظة يرتعد لها كيان الإنسان • الوالد ، والولد ، والسكين والصحراء ولا يراهم إلا الله الذي أمرهم بما أمر •

يقوم سيدنا إبراهيم بتنفيذ ما أمر به فى رؤياه ، ويستجيب الولد قال تعالى : ﴿ **فلما أسلما وتله للجبين** ﴾ أي ولما استسلما كلاً من الأب والابن لأمر الله وخضعا له ، تل سيدنا إبراهيم ولده أى ألقاء على وجهه حتى لا يراه وهو يذبحه فيضعف هو أو يضعف الابن من هول الموقف ، لحظة تصورها الآيات وتجسد لنا هذا الموقف العظيم .

وإذا هما متهيئان لتنفيذ أمر الله نودي إبراهيم قال تعالى : ﴿ **وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا** ﴾ أي امتثلت وحققت ما أمرناك به وعزمت على الذبح امتثالاً لأمر خالقك ، أي قد حصل المقصود من اختيارك وطاعتك ومبادرتك إلى ربك ﴿ **إن هذا لهو البلاء المبين** ﴾ أي الاختبار الواضح البين لذلك فدينا ولدك قال تعالى : ﴿ **وفديناه بذبح عظيم** ﴾ أي وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسره المولى عز وجل من العوض عنه .

و " الذبح " هو الكبش وقد ذكرت الآيات أنه ذبح عظيم وأوضحته السنة أنه كبش ولا داعي لما يقال أنه كان وعلاً أو تيساً .

والمشهور عند الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن قال الإمام أحمد [١] حدثنا سفيان حدثنا منصور عن خاله نافع عن صفية بنت

---

(١) مسند الإمام احمد بن حنبل ج ٤ ص ٦٨ ، ج ٥ ص ٣٨٠ .

شيبة قالت أخبرتني امرأة من بنى سليم ولدت مامة أهل دارنا قالت أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة وقال مره إنها سألت عثمان لما دعاك رسول الله ﷺ قال إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون فى البيت شئ يشغل المصلى • قال سيفان لم تزل قرنا الكبش فى البيت حتى احترق البيت فاحترقا • هذا جزاء الصابرين •

فأخذ إبراهيم الكبش فذبحه فداءاً لولده ، وقد فعل الله به ذلك ، لإخلاصه وإحسانه ، وصبره على الشدائد وتحمله البلاء الواضح ومن جملة ما تحمله رؤيته ذبح ولده ، وفلذة كبده •

وأصبح من هذا اليوم الذبح سنة للمسلمين فداءاً • يقول المولى عز وجل : ﴿ **فصلى لربك وانحر** ﴾ [١] • وبعد صلاة العيد يبدأ الذبح تطبيقاً للسنة ويكون الأمر فى الآية للندب لا للوجوب •

والخلاف بين العلماء فى من المراد بالذبح موجود فى كتب التفسير [٢] •

---

(١) سورة الكوثر الآية رقم ٢ •

(٢) انظر تفسير القرطبي ج ١٥ من ص ٩٩ : ص ١٠٢ •وتفسير ابن كثير ج ٤ من ص ١٤ : ص ١٦ • وتفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٥٠ : ص ٣٥١ وغيرهم من الكتب تفسير الفخر الرازى ج ٣ ص ٢٤٧ ، زاد المعاد لابن القيم ج ١ ص ٧١ : ص ٧٥ ، والإسرائيلين والموضوعات للدكتور / أبو شهبة ص ٢٥٢ ــ ٢٦٠ •

وفى البداية والنهاية لابن كثير :

" الظاهر من القرآن بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده ﴿ **وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين** ﴾ [1] ومن جعله حالاً فقد تكلف ومستنده أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات وكتابهم فيه تحريف ولا سيما ههنا قطعاً لا محيد عنه فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده وفى نسخة من المعربة بكرة إسحاق فلفظة إسحاق ههنا مقمحة [2] مكذوبة مفتراة لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر ٠ ذاك إسماعيل ٠ وإنما حملهم على هذا حسد العرب فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ واسحق والد يعقوب وهو إسرائيل الذين ينتسبون إليه فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم وبهت [3] ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ٠ وقد قال بأنه إسحق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم ٠ وإنما أخذوه والله أعلم من كعب الأحبار أو صحف أهل الكتاب وليس فى ذلك

---

(١) الآية ١١٢ من سورة الصافات ٠

(٢) وقمحة : مدسوسة انظر مختار الصحاح ص ٢٤٨ ٠

(٣) بهت : باطل وكذب انظر لسان العرب ج١ ص ٥١٣ والمصباح المنير ص ٦٣ ٠

حديث صحيح عن المعصوم حتى نـترك لأجلـه ظـاهر الكتـاب العزيز ولا يفهم هذا من القرآن بل المفـهوم بـل المنطـوق بـل النص عند التأمل على أنه إسماعيل • ومـا أحسـن مـا اسـتدل محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل وليـس بإسـحاق مـن قوله فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسـحاق يعقـوب قـال فكيـف تقع البشارة بإسحاق وأنه سـيولد لـه يعقـوب ثـم يؤمـر بذبـح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له هذا لا يكـون لأنـه ينـاقض البشارة المتقدمة والله أعلـم •

وقد اعترض السهيلي على الاستدلال بمـا حاصلـه أن قولـه ﴿ **فبشرناها بإسحاق** ﴾ جملة تامة وقوله ﴿ **ومـن وراء إسـحاق يعقوب** ﴾ جملة أخرى ليست في حيز البشارة • قـال ، لأنـه لا يجوز من حيث العربية أن يكون مخفوضاً إلا أن يعاد معه حـرف الجر فلا يجوز أن يقال مررت بزيد ومن بعده عمرو حتـى يقـال ومن بعده بعمر • وقال فقوله ﴿ **ومن وراء إسـحاق يعقـوب** ﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره ﴿ **ووهبنا لإسحاق يعقوب** ﴾ وفـي هذا الذي قاله نظر ورجح أنه إسحاق واحتج بقوله ﴿ **فلما بلغ معـه السعي** ﴾ قال وإسماعيل لم يكن عنده إنما كان في حال صغره هـو وأمه بجبال مكة وهذا أيضا فيه نظر لأنه قد وري أن الخليل كـان يذهب في كثير من الأوقات راكباً البراق إلى مكة يطلع على ولـده وابنه ثم يرجع والله أعلم ، فمن حكى القول عنه بأنه إسحاق كعـب

الأحبار ، وروى عن عمر والعباس وعلى وابن مسعود ومسروق وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والشعبي ومقاتل وعبيد بن عمر وأبى ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق والزهري والقاسم وابن أبى بردة ومكحول وعثمان بن حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبى الهذيل وابن سابط وهو اختيار ابن جرير (١) وهذا عجب منه وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس ولكن الصحيح عنه وعن أكثر هؤلاء أنه إسماعيل عليه السلام قال مجاهد وسعيد والشعبي ويوسف بن مهران وعطاء وغير واحد عن ابن عباس هو إسماعيل عليه السلام وقال ابن جرير حدثني يونس أنبأنا ابن وهب أخبرني عمرو بن قيس عن عطاء بن أبى رباح عن عباس أنه قال المفدى إسماعيل وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود • وقال عبد الله بن الإمام أحمد عن أبيه هو إسماعيل • وقال ابن أبى حاتم سألت أبى عن الذبيح فقال الصحيح أنه إسماعيل عليه السلام • قال ابن أبى حاتم وروى عن على وابن عمر وأبى هريرة ، وأبى الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب وأبى جعفر محمد بن على وأبى صالح أنهم قالوا : الذبيح هو إسماعيل عليه السلام • وحكاه البغوى (٢) أيضاً عن الربيع بن أنس والكلبي وأبى عمرو بن العلاء

---

(١) انظر تفسير الإمام الطبري ج ٢٣ ص ٨٤ •

(٢) تفسير الإمام البغوى ج ٧ ص ٤٨ •

قلت وروى عن معاوية وجاء عنه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ يـا ابن الذبيحين فضحك رسول الله ﷺ [1] وإليـه ذهـب عمـر بـن عبد العزيز ومحمد بن إسحاق بن يسار ، وكان الحسـن البصـرى يقول : لاشك فى هذا ، وقال محمد بن إسحاق عن بريدة عن سفيان بن فروة الاسلمى عن محمد بن كعب أنه حدثهم انه ذكر ذلك لعمـر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام يعنى استدلاله بقولـه بعد العصمة فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فقـال لـه عمر إن هذا الشئ ما كنت انظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسـل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه وكـان يرى انه من علمائهم قال فسأله عمر بن عبـد العزيـز أي ابنـي إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال إسماعيل والله يـا أمـير المؤمنيـن وإن اليهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب علـى أن يكـون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكره الله منه لصـبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسـحاق لأن إسـحاق أبوهم ٠ وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة بأدلتها وآثارها فى كتابنـا التفسير ولله الحمد والمنة [2] وهكذا اختلفت الأقوال فى الذبيح هـل هو إسماعيل أم إسحاق ٠

---

(١) أخرجه ابن جرير ج ٢٣ ص ٨٥ ، والحاكم فى المستدرك ج ٢ ص ٥٥٤ عن الصنابحي ٠

(٢)انظر البداية والنهاية لابن كثير ج١ ص ١٤٩ ، ص ١٥٠ ٠

أرجح أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام وليس إسحاق والدليل على ذلك من وجوه : ـ

١ـ أن الذبح قد وقع (بمنى) ببلاد الحجاز والذي كان يعيش فيها هو إسماعيل عليه السلام منذ أن تركهما نبى الله إبراهيم بأمر ربه هناك ٠

٢ـ لفظ (الوحيد) فى ذبح ابنه الوحيد يدل على أنه إسماعيل وكذلك لفظ (بكرة) يدل عليه أيضاً ٠

قال الإمام ابن كثير [1] : " إن إسماعيل أول من بشربه إبراهيم عليه السلام وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب بل فى نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة ، وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده وفى نسخة أخرى بكره فأقحموا ههنا كذباً وبهتاناً إسحاق ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم وإسماعيل أبو العرب فحسدوهم فزادوا ذلك وصرفوا وحيدك بمعنى الذي ليس عندك غيره فإن إبراهيم كان قد ذهب به وبأمه إلى مكة وهو تأويل وتحريف باطل فإنه لا يقال وحيدك إلا لمن ليس له غيره " ٠

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٤ ٠

٣ـ الله تعالى يقول عقب هذه الآيات التى تحكى لنا قصة الذبيح مباشرة ﴿ **وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين** ﴾ [1] .

وكيف يبشر إبراهيم عليه السلام بنبوة إسحاق ثم يأمره بذبحة قبل إنجاز الوعد ؟ .

٤ـ ثم إن قوله تعالى ﴿ **وبشرناه بإسحاق نبياً** ﴾ معطوف على ما قبله ، والعطف يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه . وهذا هو المروى عن جمهرة الصحابة والتابعين كسيدنا على وابن عمر ، وسعيد بن المسبب ، والربيع بن أنس ، والشعبي ، أحمد بن حنبل وغيرهم .

٥ـ وصف المولى عز وجل لسيدنا إسماعيل بالصبر فى قوله تعالى : ﴿ **وإسماعيل وإدريس ، وذا الكفل كل من الصابرين** ﴾ [2]ويظهر صبره عليه السلام عندما صبر على أمر ربه وقال : ﴿ **ستجدني إن شاء الله من الصابرين** ﴾ أي تقبل أمر الله فيه بالذبح بالصبر .

٦ـ قصة الرجل الذي قال لرسول الله ﷺ يا ابن الذبيحين فقد روى الإمام ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية " أنه قد روى عن

---

(١) الآية ١١٢ من سورة الصافات .

(٢) الآية ٨٥ من سورة الأنبياء .

معاوية وجاء عنه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله ﷺ " [1] .

فالذبيح الأول هو نبى الله إسماعيل جد النبي ﷺ ، والثاني عبد الله والد النبي ﷺ ، الذي نجاه الله من الذبح ، بعد أن نذر عبد المطلب ذبح أحد أولاده ، إذا بلغوا عشراً ، وكان عبد الله معرضاً للذبح ، ولكن الله عصمه ، وفداه عبد المطلب بمائه من الإبل .

٧ـ قصة الرجل اليهودي الذي أقر بأن الذبيح إسماعيل وأن اليهود حرفت وغيرت وادعت أنه إسحاق لينسبوا الشرف لهم وما كان هذا منهم إلا حقدهم على العرب قال الإمام ابن كثير : " كان الحسن البصري يقول لا شك في هذا ـ يعنى أن الذبيح إسماعيل ـ .

وقال محمد بن إسحاق عن بريده عن سفيان بن فروة الأسلمى عن محمد بن كعب أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام يعنى استدلاله بقوله بعد العصمة فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فقال له عمر إن هذا الشيئ ما كنت انظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علمائهم قال فسأله عمر بن عبد العزيز أي ابني إبراهيم أمر بذبحه

---

(١) البداية والنهاية ج ١ ص ١٥٠ .

فقال إسماعيل والله يا أمير المؤمنين وإن اليهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكره منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم " [1] .

ففى هذا تصريح وشهادة من يعلمون كتب اليهود وحقدهم بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام وليس إسحاق عليه السلام كما زعم اليهود .

---

(١)البداية والنهاية لابن كثير ج ١ ص ١٥٠ .

المبحث الثانى

قصة أصحاب الجنة [1]

قال تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ(١٧)وَلا يَسْتَثْنُونَ(١٨)فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ(١٩)فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ(٢٠)فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ(٢١)أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ(٢٢)فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ(٢٣)أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ(٢٤)وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ(٢٥)فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ(٢٦)بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ(٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ(٢٨)قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ(٢٩)فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ(٣٠)قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ(٣١)عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ(٣٢)كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(٣٣) ﴾ [2] .

---

(١)المراد بهم أصحاب جنة الدنيا ، والجنة تطلق عند العرب ويراد بها البستان ومنه الجنات ، والعرب تسمى النخيل جنة ، والجنة الحديقة ذات الشجر والنخل وجمعها جنان ، وفيها تخصيص ، وبقال للنخل وغيرها ٠ انظر لسان العرب ج ٢ ص ٣٩١ ٠

(٢) سورة القلم من الآية ١٧ : ٣٣ ٠

قصة أصحاب الجنة قد تكون معرفة ومتداولة بين أهل مكة ولكن عندما ساقها القرآن الكريم كشف عما يكمن وراء أحداثها وبيان قدرة الله عز وجل وأن الجزاء يكون من جنس العمل وذلك بأن البطر بالنعمة وعدم شكر الله تعالى عليها ومنع الخير عن الغير وعدم إعطاء حق الله والاعتداء على حقوق الآخرين صورته الآيات القرآنية فى أبدع صورة تلمح فيها ٠

طمع الدنيا وشح الأنفس ، واختبار الله عز وجل وتوبة العاصي والرجوع للحق ٠

وسيقت هذه القصة فى معرض الحديث عن المال والبنون يقول تعالى : ﴿ **أن كان ذا مال وبنين** ﴾ [١]. " اعلم أنه تعالى لما قال لأجل أن كان ذا مال وبنين جحد وكفر وعصى وتمرد ؟ وكان هذا استفهاماً على سبيل الإنكار بين فى هذه الآية أنه تعالى إنما أعطاه المال والبنين على سبيل الابتلاء والامتحان ، وليصرفه إلى طاعة الله ، وليواظب على شكر نعم الله ، فإن لم يفعل ذلك فإنه تعالى يقطع عنه تلك النعم ، ويصب عليه أنواع البلاء والآفات فقال : ﴿ **إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة** ﴾ [٢] أي أننا اختبرناكم بالنعم كما اختبرنا أصحاب الجنة وكان على الجميع شكر الله ٠

---

(١) الآية رقم ١٤ من سورة القلم ٠

(٢) انظر تفسير الإمام الفخر الرازى ج٣٠ ص ٨٧ ٠

لذلك قال العلماء[1] إن قصة أصحاب الجنة مثل يضربه الله لأهل مكة كي يتعظوا ولا ينكرون نعم الله ·

يقول الإمام ابن كثير [2] : هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجسيمة وهو بعثه محمد ﷺ إليهم فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ·

والقصة تحكى صورة حية تقع أحداثها بين أخوة لهم وبستان به نخل وزرع كان لأبيهم الرجل الصالح الذي كان يعطى الفقراء حقهم من ثمار الجنة فبارك الله له فيها وبعد وفاته انتقلت الجنة إليهم بحكم أنهم الورثة فكان لهم رأياً آخر فيما كان يخرجه أبوهم من الثمار للفقراء ·

والروايات متعددة فى كون الرجل من أي بلد كان وفى مكان الجنة التى تركها أبوهم لهم ·

تقول بعض الروايات أن الرجل الصالح كان من ثقيف وكان مسلماً يملك صيعة فيها نخل وزرع بقرب صنعاء ، وقيل : إنهم كانوا من بنى إسرائيل ، وقيل من أهل الحبشة ، وقيل من اليمن [3] والله أعلم ·

---

(١) انظر الفخر ج ٣٠ ص ٨٧ ، ابن كثير ج ٤ ص ٤٠٦ ، سيد قطب ج ٤ ص ٣٦٦ · والبداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ١١٠ ·

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٠٦ ·

(٣) انظر كتاب ابن كثير ج ٤ ص ٤٠٦ والفخر الرازى ج ٣٠ ص ٨٧ ·

وفى الحقيقة لا يهمنا من أي بلد كانوا ، ولكن الذي يهمنا المثل سواء كانوا من صنعاء أو الضيعة فى صنعاء أو من ثقيف أو من الحبشة أو من بنى إسرائيل • فإنهم قوم ورثوا من أبيهم جنة كان يؤدى حقها فلما صار أمرها إليهم بخلوا وتنكروا لنعمة الله عليهم وعزموا على حرمان الفقراء منها فعاقبهم الله بنفس فعلهم وحرمهم منها كما عزموا على حرمان الفقراء والقصة ترسم لنا صورة حية لشح النفس البشرية التى تتنكر لنعم الله فقد شح الأبناء عما كان يعطيه أبوهم من ثمار البستان وقالوا عيالنا كثير ، كثير ، والمال قليل ولا يمكننا أن نعطى الفقراء كما كان يفعل أبونا •

وعقدوا العزم على حرمان الفقراء قال تعالى : ﴿ **إذا أقسموا البصر مصبحين** ﴾ والقسم هو اليمين والحلف •

وأصرم النخل أي جاء وقت صرامه يقال قد صرم العذق عن النخلة •

أي حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمر الجنة فى الصباح الباكر دون أن يشعر بهم الفقراء فيأخذوا منه ما كانوا يأخذونه فى حياة أبيهم •

لقد عزموا على ذلك ليلاً وكان الأمر سراً بينهم وباتوا وناموا ونسوا أن رب الأرض والسماء لا ينام وغفلوا ونسوا أن الله لا يغفل عن شئ فى الأرض والسماء وأنه هو المالك الحقيقي للأرض

وما عليها وما فوقها وما تحتـــها رب المســتضعفين رب الــرش العظيم •

ويقول مقاتل [1] معناه : اعذوا سراً إلى جنتكم فأصرموهـــا ، ولا تخبروا المساكين ، وكان أبوهم يخبر المساكين •

فيجتمعون عند صرام جنته حلفوا على ذلك ولم يســتثنوا فــى يمينهم •

وللعلماء أقوال فى المــراد بالاســتثناء فــى قولــه تعــالى : ﴿ **ولا يستثنوا** ﴾ فــالأكثرون أنــهم إنمــا لــم يســتثنوا حلفــهم بالمشيئة بأن يقول الحــالف إن شــاء الله وذلــك أن الحــالف إذا قال والله لأفعلن كذا إلا أن يشاء الله غيره خــرج مــن يمينــه إن لم يفعله أي أنه لا يحنث • وأصحــاب الجنــة لــم يســتثنوا فــى اليمين لأنهم كانوا واثقين بأنهم متمكنون مـــن إنفــاذه لأن الجنــة ملكاً لهم ونسوا المـــالك الحقيقــي للنعــم وهــو الله مــالك كــل شئ •

وقال آخرون بل المراد أنهم يصرمون كل ذلك ولا يستثنون ما كان يعطيه أبوهم الصالح للفقراء •

ومعنى الآية يحتمل الكل فهم لم يقدموا فعل لمشيئة ولم يســتثنوا نصيب الفقراء الذي كان يدفعه أبوهم •

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازى ج ٣٠ ص ٨٧ •

وهنا نـرى الـدرس الإلـهي ، الـدرس العلمـي رداً علـى جحدهم نعمة الله قال تعالى : ﴿ **فطاف عليها طـائف مـن ربـك وهم نائمون** ﴾ أي أن المولى عز وجل أنـزل عليـهم عـذابه بالليل فأصاب الجنة أفه سـماوية قيـل : إن نـاراً نزلـت مـن السماء فأحرقتها وهم فى غفلـة نـائمون ٠

﴿ **فـأصبحت كـالصريم** ﴾ يقـول ابـن عبـاس أي كـالليل الأسود وقـال الثـوري والسـدى مثـل الـزرع إذا حصـد أي هشيماً يبساً [1] وعن ابـن مسـعود قـال : قـال رسـول الله ﷺ " إياكم والمعاصي إن العبد ليذنب الذنب فيحـرم بـه رزقـاً قـد كان قد هيئ لـه ، ثـم تـلا رسـول الله ﷺ ﴿ **فطـاف عليـها طائف من ربك وهم نائمون فـأصبحت كـالصريم** ﴾

عزموا على حرمان غيرهم مـن القليـل فحرمـهم الله مـن الكثير فقد حرموا خير جنتهم بذنبـهم ٠

وعندمـا أصبـح الصبـح نـادى بعضـهم بعضـا ليذهبـوا لجنتـهم ويحصدوهـا دون أن يشـعر بـهم أحـد قـال تعـالى مخـبراً بذلـك ﴿ **فتنـادوا مصبحيـن أن أعـدوا علـى حرثكـم إن كنتـم صـارمين** ﴾ ٠

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٠٦ ٠

وانطلقوا وهم يتهامسون حتى لا يشعر بهم أحد قال تعالى : ﴿ **وهم يتخافتون** ﴾ ولكن المولى عز وجل فسر لنا ما كانوا يتهامسون ويتخافتون به من الحديث لأنه عالم السر والنجوى يقول تعالى : ﴿ **أن لا يدخلها اليوم عليكم مسكين** ﴾ فكان بعضهم يقول لبعض لا نمكنن اليوم أحداً من الفقراء دخول الجنة كما كان يفعل أبونا من قبل .

﴿ **وغدوا على حرد قادرين** ﴾ والحرد يطلق ويراد به المنع ، ويراد به أيضا الغضب وكذلك يراد به العلم وكل هذه المعانى جائزة لأنهم كانوا يعتقدون أنهم قادرون على منع الفقراء من دخولها وكانوا أشد غضباً عليهم وأن لهم القوة والعلم على صرم الجنة دون أن يعلم أحد من الفقراء شيئا وأن يتم لهم مرادهم فى الصرم والحرمان وبعد أن صور لنا المولى عز وجل صورتهم أحسن تصوير فهم منطلقون يتحدثون ويتخافتون ويحفذ كل واحد منهم الآخر على حرمان الفقراء والمساكين فإذ هم يفاجئون بعقاب الله الذى لا يغفل ولا ينام يقول تعالى : ﴿ **فلما رأوها قالوا إنا لضالون * بل نحن محرومون** ﴾ وللعلماء فى المراد بالآية وجوه :

الأول : أنهم لما وصلوا إلى الجنة ولم يجدوا إلا هشيما محترقا ظنوا أنهم ضلوا الطريق فقالوا : ﴿ **إنا لضالون** ﴾ ولكن سرعان ما تحققوا أنها جنتهم وأنهم حرموا منها بسبب عزمهم على حرمان الفقراء .

الثانى : أنهم لما وصلوا إليها وجدوها قد احترقت علمـــوا أن هذا عقاب من الله لهم وأنه حرمهم منها بسبب عزمهم على حرمـان الفقراء ٠

ولا تعارض بين الوجهين لأن الإنســان عنـد الصدمــة قـد يشك فى الأمر من شدة ما حاق به مــن مصيبــة فــهم متــأكدون أنها جنتهم ولكنهم من هـــول مــا وجــدوه ظنــوا أنــهم ضلــوا الطريق والوجه الثانى يخبرنا أنهم علمـــوا أن هــذا عقــاب مــن الله لهم بسبب مكرهم وبخلهم ونيتهم الســيئة التــى بيتوهــا تجــاه الفقراء فهو متفق مع الوجـــه الأول فــى كــون حرمانــهم كــان نتيجة لعزمهم على حرمان غــيرهم والله اعلــم ٠

وبعد أن تحققوا أن المكـــر الســئ لا يحيــق إلا بأهلــه وأن ما حل لهم نتيجـــة بطرهـــم ومنعـــهم الغـــير مــن نعمــة يتقــدم أوسطهم فيقول : ﴿ **قال أوسطهم ألم أقـــل لكـــم لـــولا تســـبحون** ﴾ ويقول العلمـــاء أن أوســطهم أى أعدلـــهم وأصلحـــهم وخـــيرهم ويبدو أنه كان له رأى غير رأيهم ولكنـــه لمـــا نـــزل عـــن رأيـــه وهو الحق عوقب بالحرمــــان مثلـــهم وقولـــه تعـــالى : ﴿ **لـــولا تســـبحون** ﴾ ٠

قال مجاهد والسدى وابن جريج : ﴿ **لولا تسبحون** ﴾ أى لـــولا تستثنون ٠ قال السدى وكان استثناؤهم فى ذلك الزمان تسبيحاً ٠

وقال ابن جرير هو قول القائل إن شاء الله ، وقيـــل معنـــاه قـــال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ؟ أى هلا تســـبحون الله وتشـــكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم " [1].

واعترفوا بذنبهم وجرمهم وندموا حيث لا ينفع الندم إلا مع العـــزم والاصرار على عدم فعل المعصية مرة أخرى فقـــالوا : ﴿ **إنـــا كنـــا ظالمين * فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون** ﴾ أى أنـــــهم اعـــترفوا بظلمهم وأقبل بعضهم يلوم بعضا على ما كانوا عازمين عليه من منـــع الفقراء من حقهم فى ثمار الجنة فكان الجواب منهم أن اعترفوا بـــالذنب ﴿ **قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين** ﴾ أى أنهم اعترفوا بالذنب بعد العقـــاب واستعظموا جرمهم ونادوا على أنفسهم بالويل على ما صدر منهم مـــن اعتداء على حق الفقراء وبغى ونكران لنعم الله تجاوز الحد فى الظلـــم حتى أصابهم ما أصابهم ٠

ثم قالوا عند ذلك ﴿ **عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنـــا راغبون** ﴾ قيل : إنهم رغبوا فى أن يبدلهم المولى عز وجل خيراً منـــها فى الدنيا وقيل : إنهم احتسبوا ثوابها فى الآخرة ٠ ولا يمنع إرادة الكـــل فالإنسان إذا أصابته مصيبة فى ماله أو نفسه أو عياله عليه أن يرضـــى بقضاء الله وينتظر رضوان الله عليه ورحمته بأن يعوض له ما افتقـــده فى الدنيا أو أن يدخره له ثواب صبره فى الآخرة وكل خير ٠

" وقد اعتبر بعض العلماء أن قولهم هذا توبة منهم وقال البعـــض الآخر إن هذا الكلام يحتمل أنهم قالوه رغبة منهم فى الدنيا " [2].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٠٦ ٠

(٢) انظر التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ٣٠ ص ٩١ ٠

ثم بين المولى عز وجل أن ما حاق بهم من حرق جنتهم كان عذابا فقال عز من قائل : ﴿ **كذلك العذاب** ﴾ أى كما ذكرنا من إحراق الجنة ·

وبذلك تنتهى قصة أصحاب الجنة التى ضرب الله بها مثلا لمشركى مكه وختم الآية بتخويفهم بأن عذاب الدنيا لا يساوى شيئاً مقارنة بعذاب الآخرة فقال عز وجل : ﴿ **ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون** ﴾ ·

ومن القصة نأخذ العبرة فليعلم المسلم أن المال مال الله وإنما جعل الله الإنسان مستخلفا عليه فى الدنيا يكسبه من طريق حلال ويصرفه فى حلال ويعطى حقه بالزكاة والصدقة ، وقد عاقب المولى عز وجل أصحاب الجنة بالحرمان فكان عقابهم بنقيض مقصدهم وكان الجزاء من جنس العمل فقد عزموا على حرمان الفقراء فحرمهم الله من كل الثمر ·

وقد أمرنا خالقنا بإخراج حق الزرع فقال : ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ [1]·

---

(١) سورة الأنعام جزء من الآية ١٤١ ·

وهذا مما بينته السنة النبوية الشريفة فقد جاءت الآية مجملة حيث أثبتت أن فى الزروع زكاة ولم يتبين ما هو هذا الحق وهل هو متساوى أياً كان نوع السقى فجاءت السنة النبوية الشريفة وقامت بهذا البيان فقال ﷺ : " فيما سقت السماء العشر وما سقى بالنضح نصف العشر " أخرجه الإمام البخارى جـ ٢ كتاب الزكاة باب العشر فيما يسقى من ماء السماء وبالماء الجارى ص ١٥٥ ·

ثم بينت السنة أيضا نصاب زكاة الزروع فقال ﷺ : " ليس فيما دون خمس أو سق صدقه " أخرجه الإمام البخارى جـ ٢ كتاب الزكاة باب ليس فيما دون خمسه أوسق صدقه ص ١٥٦ ·

المبحث الثالث

قصة : ابن أم مكتوم

قال تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى(١)أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى(٢)وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى(٣)أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى(٤)أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى(٥)فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى(٦)وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى(٧)وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى(٨)وَهُوَ يَخْشَى(٩)فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى(١٠)كَلا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ(١١)فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ(١٢)فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ(١٣)مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ(١٤)بِأَيْدِي سَفَرَةٍ(١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ(١٦)﴾ [١] .

قصة ابن أم مكتوم واقعة معينة حدثت زمن رسول الله ﷺ أو بالمعنى الأحرى مع رسول الله ﷺ .

وهى حادثة قررت حقيقة الحياة الإسلامية وأرست مبادئ وقيم اجتماعية ودينية تبين لنا حقيقة الدعوة الإسلامية التى لا تفرق بين الغنى والفقير ولا بين القوى والضعيف دعوة بنيت على المساواة وعلى أن أكرم الناس هو من تمسك بالتقوى ﴿ **إن أكرمكم عند الله اتقاكم** ﴾ [٢] .

---

(١) سورة عبس من الآية ١ إلى الآية ١٦ . وهى سورة مكية عدد آياتها اثنان وأربعون آية .

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣ .

وهى حادثة بينت كيف يعامل البشر بعضهم بعضا ، بل من أين تستمد القيم •

وكانت الحادثة معجزة كبرى تضم إلى معجزات رسول الله ﷺ وتنطق لجميع البشر بصدق نبوته وبأن القرآن الكريم كلام رب العالمين ، إذ لو لم يكن كلام رب العالمين فكيف يوجه رسول الله ﷺ العتاب لنفسه •

والأسلوب القرآنى العظيم قد عرض لنا الحادثة فى أروع أسلوب حيث يجئ هذا الرجل الفقير الأعمى ابن أم مكتوم [١] إلى رسول الله ﷺ يطلب العلم والمعرفة منه بينما رسول الله ﷺ كان مشغولاً بأمر النفر من سادة قريش يدعوهم للدين الجديد ، إلى الإسلام ليكونوا قوة له بإسلامهم ، يجئ هذا الرجل الفقير ورسول الله ﷺ منشغل لا لمصلحة ولكن لمصلحة الإسلام والمسلمين فلو أسلم هؤلاء لأسلم من كان معهم ولزالت أكبر عقبة كان يواجهها عليه الصلاة والسلام وهنا ينزل النجم القرآنى ليضع المقاييس الحقة لمعالم الطريق وليقرر القيم السليمة ، عتاب لسيد الخلق أجمعين ، صاحب الخلق العظيم ، وتعليم للبشرية بأسرها وبث مبادئ الأخلاق والمعاملات بين الناس التى منها إعطاء كل إنسان حقه فى التقدير والاهتمام مهما كان قدره ، مبادئ كريمة نحتاجها فى حياتنا اليومية فكثيراً ما نرى الانشغال بأصحاب العزة والقوة والجاه والإنصراف

---

(١) قيل إن اسمه عبد الله وقيل عمر •

عن أصحاب الحاجات والضعفاء والفقراء ، بل الميزان الحق الإهتمام والرعاية والاعتبار لمن كان عند الله أكرم .

وقد ذكر المفسرون في كتبهم [1] أن ابن أم مكتوم هو الذى نزل فيه النجم القرآنى وذكر الإمام الواحدى [2] أنها نزلت في ابن أم مكتوم فقال : " وهو ابن أم مكتوم وذلك أنه أتى النبى ﷺ وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام وعباس بن عبد المطلب وأبيا وأمية ابنى خلف يدعوهم إلى الله تعالى ويرجو إسلامهم فقام ابن أم مكتوم وقال : يا رسول الله علمنى مما علمك الله وجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدرى أنه منشغل مقبل على غيره حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامهم وقال في نفسه يقول هؤلاء الصناديد إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد فعبس رسول الله ﷺ وأعرض عنه واقبل على القوم الذين يكلمهم فأنزل الله تعالى هذه الآيات فكان رسول الله ﷺ بعد يكرمه إذا رآه يقول مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى .

..... وعن عائشة قالت أنزلت ﴿ **عبس وتولى** ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى أتى إلى النبى ﷺ فجعل يقول يا رسول الله أرشدنى وعند رسول الله ﷺ رجال من عظماء المشركين فجعل

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٧٠ .

(٢) أسباب النزول للواحدى ص ٣٣٢ .

النبى ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخرين ففى هذا أنزلت عبس وتولى " .

يقول الإمام ابن كثير [1] : " ومن هنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يخص بالإنذار أحداً بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف ، والفقير والغنى والسادة والعبيد والرجال والنساء والصغار والكبار ، ثم الله تعالى يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

والعبرة واضحة من هذه الحادثة وإن كانت شخصية إلا أنها أرست مبادئ وقيم عامه وبينت أن الحياة البشرية لا تقوى ولا تستقر ولا تنتصر إلا بإقرار الميزان الإلهى وانتصار القيم الدينية ويتجلى ذلك واضحا من كلمات الآيات القرآنية وعرض لصورة كأنها ماثلة أمامنا نتخيل ملاحقة ابن أم مكتوم الرسول ﷺ وانصرافه عنه لانشغاله بأمر أهم وهو مصلحة الدعوة فينزل النجم القرآنى ليعاتب سيد الخلق صاحب الخلق العظيم فى أسلوب ردع وزجر " كلا " يالها من كلمة موجزة عبرت عن مدى عظمة الأمر الذى يقوم عليه هذا الدين والله أعلم .

---

(١) تفسير القرآن العظيم جـ ٤ ص ٤٧٠ .

المبحث الرابع

قصة أصحاب الأخدود

يقول تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ(١)وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ(٢)وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ(٣)قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ(٤)النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ(٥)إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ(٦)وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ(٧)وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(٨)الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(٩)﴾ [١] .

الآيات التسع المذكورة من سورة البروج [٢] وهذه السورة الصغيرة التى يبلغ عدد آياتها اثنان وعشرون آية الموضوع الرئيسى لها قصة أصحاب الأخدود .

وقد بدأت القصة بالقسم فقد أقسم المولى عز وجل بالسماء وما فيها من نجوم ومنازل وبيم القيامة وما فيه من

---

(١) سورة البروج من الآية ١ : ٩ .

(٢) البروج فيها أقوال أربعة : أحدهما : ذات النجوم ، والثانى : القصور ، والثالث : ذات الخَلْقْ الحس والرابع : ذات المنازل وهى اثنا عشر برجا لأثنى عشر كوكبا . أنظر تفسير الإمام القرطبى جـ ١٩ ص ٢٨٣ ، زبدة التفسير من فتح القدير لمحمد الأشقر ص ٨٠٠ وابن كثير جـ ٤ ص ٤٩١ .

أهوال وبالشاهد والمشهود [١] الـــذى يشـــهد كـــل أعمـــال العبـــاد التى منها الجريمة الفظيعة التى فعلها أصحـــــاب الأخـــدود .

" يقسم المولى بكل هذه الأشياء أنهم لملعونـــون يعنـــى كفـــار قريش كما لعن أصحاب الأخدود وذلك أن السورة جـــاءت لتثبيـــت المؤمنين وتبصيرهم على أذى الكفار حتى يستأنسوا ويصبروا علـــى ما كانوا يلقوه من أذى وتعذيب " [٢].

ثـــم تبـــدأ الآيـــات بعـــد القســـم بالإشـــارة إلـــى الحادثـــــة المروعـــه وهـــى حادثـــة أصحـــاب الأخـــدود ، تبـــدأ القصـــــة باللعنـــة عليـــهم وإعـــلان النقمـــة لذلـــك عـــبر بلفـــظ " قتـــــل " التـــى يوحـــى بـــالغضب علـــى الفعلـــة وفاعليـــها ، كمـــا أنـــها تدل على بشـــاعة الذنـــب .

" وكل لفظ " قتل " فى القرآن المراد به اللعن " [٣]

---

(١) وردت أقوال كثيرة فى الشاهد والمشهود قيل : إن الشاهد يوم الجمعـــة وقيـــل يوم الأضحى والتروية وعرفة وقيل هو الله عز وجل وقيل محمد ﷺ وقيـــل الرسل والأنبياء وقيل آدم والإنسان وقيل الحفظة وقيل المال .
أما المشهود فقيل يوم عرفة وقيل يوم النحر وقيل يوم القيامة وقيل أمته وقيـل بنو آدم وقيل الليالى والأيام ولا يمنع أن يكون المـــراد كـــل هـــذا . انظـــر القرطبى جــ ١٩ ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ابن كثير جــ ٤ ص ٤٩١ .

(٢) انظر : تفسير الكشاف جــ ٤ ص ٢٣٧ .

(٣) انظر تفسير القرطبى جــ ١٩ ص ٢٨٦ .

والأخدود : الشق العظيم المستطيل فى الأرض كالخندق وجمعه أخاديد ومنه الخد لمجارى الدموع ، والمخدة لأن الخد يوضع عليها • ويقال : تخدد وجه الرجل : إذا صارت فيه أخاديد من جارح [١] •

وأصحاب الأخدود أحد ملوك الكفار وجنده لما آمن رعيته شقوا لهم الأخدود وأضرموا النيران •

وقالوا للمؤمنين من يرجع منكم عن دينه تركناه ومن لم يرجع ألقيناه فى نار الأخدود • وكانوا قد حفروا الأخدود وأشعلوا فيه النيران فصارت النار بدلاً فى التعبير من الأخدود للإيحاء بتلهب النار التى أوقدوها فصبر القوم المؤمنون فألقوهم فى النار فاحترقوا ، والملك وأصحابه يراقبون الموقف وينظرون إلى المؤمنين وهم يلقون فى النار يالها من قلوب متحجرة بشعة متمثلة فى قلوب الكافرين ويالها من قلوب مؤمنة صابرة قوية يُرى منها عظمة العقيدة وقوة الإيمان •

يقول تعالى : ﴿ **قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود** ﴾ •

---

(١) انظر : تفسير الإمام القرطبى جـ ١٩ ص ٢٨٧ ، تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٩٣ وتفسير سيد قطب جـ ٦ ص ٣٨٧٣ وصحيح الإمام البخارى جـ ٢ كتاب التفسير ص ٢٠٨ وشرح الإمام النووى على صحيح مسلم جـ ١٨ كتاب الزهد ص ١٣٠ والمعنى اللغوى فى لسان العرب جـ ٤ ص ٣٣ ، ٣٤ •

وردت روايات مختلفة فيمن نزلت فيهم مجموعة الآيات منـــها من يقول إنها نزلت فى قوم كانوا بعد مبعث المسيح وخالفه غـيرهم وقالوا كانوا قبل المسيح •

وفى الحقيقة أن الظلم ومحاربة العقيدة موجود فى كل زمـــان ومكان لأنه صراع بين الحق والباطل ، بين الخير والشر وقد شـق الأخدود أكثر من مره كلون من ألوان العذاب فهذا الصنيع متكـــرر فى العالم مرارا تجاه المؤمنين من الجبارين الكافرين •

وقد ورد فى هؤلاء القوم المذكورين فى السورة خبر صحيــح مذكور فى صحيح الإمام مسلم وآخر فى مسند أحمد ورواية عنـــد النسائى ورواه الترمذى ورواية مسلم تقول :

حدثنا هداب بن خالد حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت بن عبــد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال كان ملـــك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال للملك إنى قد كـــبرت فابعث إلى غلاما أعلمه السحر فبعث إليه غلاما يعلمه فكـــان فـــى طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتـــى الساحر مر بالراهب وقعد إليه فإذا أتى الساحر فشكى إلى الراهــب فقال إذا خشيت الساحر فقل حبسنى أهلى وإذا خشيت أهلـــك فقـل حبسنى الساحر فبينما هو كذلك إذا أتى على دابة عظيمة فقد حبست الناس فقال اليوم اعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل فأخذ حجــرا فقال اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه

الدابة حتى يمضى الناس فرماها فقتلها ومضى الناس فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب أى بنى أنت اليوم أفضل منى قد بلغ من أمرك ما أرى وأنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل على وكان الغلام يبرئ الأكمة والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء فسمع جليس للملك كان قد عمى فأتاه بهدايا كثيرة فقال ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتنى فشفاه الله فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك من رد عليك بصرك قال ربى قال ولك رب غيرى قال ربى وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فقال له الملك أى بنى قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمة والأبرص وتفعل فقال إنى لا أشفى أحدا إنما يشفى الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب فجئ بالراهب فقيل له ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ثم جئ بجليس الملك فقيل له ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ثم جئ بالغلام فقيل له ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال اللهم أكفنيهم بم شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشى إلى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك قال كفنيهم الله فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به فاحملوه فى قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن

دينه وإلا فاقذفوه فذهبوا به فقال اللهم أكفنيهم بم شئت فنكفأت بـــهم السفينة فغرقوا وجاء يمشى إلى الملك فقال لـــه الملـــك مـــا فعـــل أصحابك قال كفنيهم الله فقال للملك إنك لست بقاتلى حتى تفعل مـــا أمرك به وما هو قال تجمع الناس فى صعيد واحد وتصلبنى علـــى جذع ثم خذ سهما من كنانتى ثم ضع السهم فى كبد القوس ثـــم قـــل باسم الله رب الغلام ثم ارمنى فإنك إذا فعلت ذلـــك قتلتنـــى فجمـــع الناس فى صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهما من كنانته ثـــم وضع السهم فى كبد القوس ثم قال باسم الله رب الغلام ثـــم رمـــاه فوقع السهم فى صدغه فوضع يده فى صدغه فى موضـــع الســـهم فمات فقال الناس آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام آمنا برب الغـــلام فأتى الملك فقيل له أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك قـــد آمن الناس فآمر بالأخدود فى أفواه السكك فخدت وأضرم النـــيران وقال من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها أو قيل له اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغـــلام يا أمه اصبرى فإنك على الحق " (١)

وقد أورد محمد بن اسحاق هذه القصة على وجه آخـــر فقـــال حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب وحدثنى أيضا بعض أهـــل نجران عن أهلها أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثـــان

---

(١) انظر صحيح الإمام مسلم بشرح النووى جـ ١٨ كتاب الزهد قصة أصحـــاب الأخدود والساحر والراهب والغلام من ص ١٣٠ ـــ ١٣٣ .

وكان فى قرية من قراها قريباً من نجران " ونجران هـــى القريـــة العظمى التى إليها جماع أهل تلك البلاد " ساحر يعلم غلمان أهـــل نجران السحر فلما نزلها فيمون ولم يسموه لى بالإسم الـــذى سـماه ابن منبه قالوا رجل نزلها فابتنى خيمة بين نجران وبين تلك القريـــة التى فيها الساحر وجعل أهل نجران يرسلون غلمانـــهم إلـــى ذلـــك الساحر يعلمهم السحر فبعث التامر ابنه عبد الله بـــن التـــامر مـــع غلمان أهل نجران فكان إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى مـــن عبادته وصلاته فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم فوحـــد الله وعبده وجعل يسأله عن شرائع الإسلام حتى إذا فقه فيه جعل يســـأله عن الاسم الأعظم وكان يعلمه فكتمه إياه وقال له ياابن أخى إنك لن تحمله أخشى ضعفك عنه والتامر لا يظـــن إلا أن ابنـــه عبـــد الله يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضمن به عنه وتخوف ضعفه فيه عمد إلى قداح فجمعها ثم لـــم يبق لله اسماً يعلمه إلا كتبه فى قدح لكل اسم قدح حتى إذا أحصاهـــا أوقد ناراً ثم جعل يقذفها قدحاً قدحاً حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقدحه فوثب القدح حتى خرج منها لم تضره شيئاً فأخذه ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذى كتمه فقال وما هو قال كذا وكذا قال وكيف علمته فأخبره بما صنع قال أى ابن أخى قد اصبته فأمسك على نفسك وما أظن أن تفعل فجعـــل عبـــد الله بـــن التامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضر إلا قال يا عبد الله أتوحد

الله وتدخل فى دينى وأدعوا الله لك فيعافيك عما أنت فيه من البلاء ودعا له فعوفى حتى رفع شأنه إلى ملك نجران فدعاه فقال أفسدت على أهل قريتى وخالفت دينى ودين آبائى لأمثلن بك قال لا تقدر على ذلك فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح على رأسه فيقع إلى الأرض ما به بأس وجعل يبعث به إلى مياه بنجران بحور لا يُلقى فيها شئ إلا هلك فيلقى به فيها فيخرج ليس به بأس فلما غلبه قال له عبد الله بن التامر والله لا تقدر على قتلى حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به فإنك إن فعلت سلطت علىّ فقتلتنى قال فوحد الله ذلك الملك وشهد شهادة عبد الله بن التامر ثم ضربه بعصا فى يده فشجه شجة غير كبيرة فقتله وهلك الملك مكانه واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن التامر وكان على ما جاء به عيسى بن مريم من الإنجيل وحكمه ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحزاب فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران ٠ قال ابن اسحاق فهذا حديث محمد بن كعب وبعض أهل نجران عن عبد الله بن التامر فالله أعلم أى ذلك كان فسار إليهم ذو نواس بجنده فدعاهم إلى اليهودية وخيرهم بين ذلك أو القتل فاختاروا القتل فخدوا الأخدود وحرّق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم فقتل منهم قريباً من عشرين ألفاً ففى ذى نواس وجنده أنزل الله على رسوله ﴿ **قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود** ﴾ الآيات ٠

وهذا يقتضى أن هذه القصة غير ما وقع فى سياق مسلم وقـــد زعم بعضهم أن الأخدود وقع فى العالم كثيراً كما قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو اليمان أنبأنا صفوان عن عبد الرحمن بن جبـير قال كانت الأخدود فى اليمن زمان تبع وفى القســـطنطينية زمـــان قسطنطين حتى صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيـــد واتخذ أتونا [١] وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المســـيح والتوحيد وفى العراق فى أرض بابل فى زمان بخت نصـــر حيـــن صنع الصنم وأمر الناس فسجدوا لـــه فـــامتنع دانيـــال وصاحبـــاه عزرياومشايل فأوقد لهم أتونا وألقى فيها الحطب والنار ثم ألقاهمـــا فيه فجعلها الله عليهم برداً وسلاماً وأنقذهم منها وألقى فيـــها الذيـــن بغوا عليه وهم تسعة رهط فأكلتهم النار وقال أسباط عن السدى فـــى قوله ﴿ **قتل أصحاب الأخدود** ﴾ قال كان الأخدود ثلاثة خد بالشـــام وخد بالعراق وخد باليمن رواه ابن أبى حاتم " [٢].

ونرى أن المعانى متقاربـــة ترمـــز للـــهدف الـــذى ســـيقت من أجله الآيات وهى التـــهديد والوعيـــد لمـــن يحـــارب ديـــن الله كما تبين قوة عقيدة المؤمنين وأن عقيـــدة المؤمـــن كـــانت أقـــوى من نيران الأخدود وأن قوى الشـــر والخـــير موجـــوده فـــى كـــل مكـــان .

---

(١) معنى : أتونا أى موقداً انظر لسان العرب جـ ١ ص ٦٤ .

(٢) انظر : البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ص ١٢٠ ، ١٢١ .

وبعد أن صورت الآيات موقف أصحاب الأخدود وهم يوقــدون النار ويلقون بالمؤمنين فيها وهم قعود على النار ينظرون ويراقبون عملية التعذيب ويتمثل ذلك فى قوله تعــالى : ﴿ **وهــم علــى مــا يفعلون بالمؤمنين شهود** ﴾ .

ثم تقص الآيات أن ما نقم منهم الملك الظالم وأعوانه الكفرة إلا أن هؤلاء القوم المؤمنين آمنوا بالله الواحد الأحــد الغــالب المنيــع المحمود فى كل حال حال السراء والضراء لأن المؤمن إذا أصابتــه مصيبة فليعلم أن لا مانع لها ولا كاشـــف إلا الله . الــذى يملــك السموات والأرض ومن فيهن عالم الغيب والشهادة الذى لا يخفـــى عليه شئ . يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

فهذه جريمتهم التى اقترفوها قال تعالى : ﴿ **وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملـــك الســماوات والأرض والله على كل شئ شهيد** ﴾ .

هكذا انتهت القصة وقد ملأت القلب بقوة الإيمان وسمت بالنفس أسمى درجات العلو والرفعة .

انتهت بلمسة تطمئن القلوب المؤمنة وهى ملك المالك العظيــم للأرض والسماء وتهدد وتوعد الظالمين فالله هو الشهيد وكفى بــالله شهيدا . **والله أعلم** .

المبحث الخامس

ناقة صالح [1]

يقول تعالى : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ(٦١)قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ(٦٢) قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ(٦٣)وَيَاقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ(٦٤)فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ(٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ(٦٦)وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٦٧)كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ(٦٨) ﴾ .

من الآية ٦١ : ٦٨ سورة هود

---

(١) ذكرت قصة صالح فى سورة الأعراف الآية ٧٣ : ٧٧ ، سورة الإسراء الآية ٥٩ وسورة الشعراء الآيات من ١٥٤ ــ ١٥٧ وسورة القمر الآية ٢٧ وسورة الشمس الآيات ١٣ ــ ١٤ .

لقد كان للحيوان دور كبير فى قصة صالح ــ عليه السلام ــ مع قومه وتكذيبهم له حيث أيده الله تعالى بآية بينة دالة على صدقه فى دعوته ٠

وهذه الآية العظيمة هى الناقة التى ذكرها الله فى كتابه العزيز والآيات جميعا تحكى لنا قصة نبى الله صالح مع قومه وما فعلوه بالآية التى أيده المولى عز وجل بها وهى الناقة ٠

وصالح هو : صالح بن عبيد الله بن ماشخ بن حاذر بن ثمود بن عابد بن آدم ابن سام ابن نوح ٠

وثمود قبيلة من العرب سمو بهذا الإسم نسبة إلى أبيهم الأكبر ثمود بن عابد بن آدم بن إرم بن سام بن نوح من أحياء العرب قبل إبراهيم ــ عليه السلام ــ أبو الأنبياء ٠

وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم بين الحجاز والشام وتقع ديارهم بالقرب من طريق المدينة تبوك ٠

وسبب تسميتها ثمود قلة مائها لأن الثمد الماء القليل " (١)٠

---

(١) لسان العرب ج ٢ ص ١٢٥ ــ أنظر تفسير معالم التنزيل للإمام البغوى على هامش تفسير الخازن ج ٢ ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ مطبعة مصطفى البابى الحلبى ٠ وانظر فتح البارى شرح أحاديث البخارى ج ٦ ص ٢٦٨ كتاب أحاديث الأنبياء ــ باب قوله ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحا** ﴾ ط دار المعرفة بيروت ٠ وانظر قصص الأنبياء لابن كثير تحقيق د / السيد الجميلى ص ١١٢ دار الجيل لبنان ، وقصص الأنبياء تأليف عبد الوهاب النجار ص ٧٨ ٠

مساكن ثمود

كانت مساكنهم بالحجر بين الحجاز والشام ولما هلكت عاد بالصاعقة كما أخبرنا القرآن الكريم ﴿ **فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرير عاتية** ﴾ (١).

بسبب ذنوبهم أورث الله ثمود أرضهم وديارهم فخلفوهم فيها وزرعوا ونحتوا الجبال بيوتا ، وأصبحوا فى سعة من العيش ورغد ولكنهم لم يشكروا الله على نعماته بل استكبروا وعبدوا الأوثان من دون الله وأعرضوا عن آيات الله .

ويقول الشيخ عبد الوهاب النجار : " وقد زارها بعض أصحابى ودخل بيت الملك وهو بيت ذو حجرات به ردهة كبيرة وهو منقور فى الصخر والمكان الذى فيه ديارهم يعرف إلى اليوم " بفج الناقة " ويقول المسعودى ورممهم باقية وآثارهم بادية فى طريق من ورد من الشام وحجر ثمود فى الجنوب الشرقى من أرض مدين وهى مصاقبة لخليج العقبة وقد كان يقال عاد ارم إلى أن هلكوا فقالوا ثمود أرم " (٢).

وكان أهل ثمود تدين بعبادة الأصنام يشركونها مع الله فى العبادة لذلك أرسل الله إليهم صالحا واعظاً لهم .

---

(١) سورة الحاقة الآية ٥ ، ٦ .

(٢) أنظر قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار ص ٧٩ .

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا : " قد علمنا من سنة القـــرآن وأساليبه فى قصص الأنبياء مع أقوامهم أن المـــــراد بــها العــبرة والموعظة ببيان سنن الله تعالى فى البشر وهداية الرســـل عليـــهم الصلاة والسلام وحوادث الأمم وضوابط التاريخ مرتبـــة بحســب الزمان أو أنواع الأعمال ٠

وقد حكى لنا عن صالح ـ عليه السلام ـ أنه ذكر فى الآيــــة التى أيده الله تعالى بها عقب تبليغ الدعوة وفى قصته مـــن ســورة هود أنه ذكر لهم الآية بعد ردهم لدعوته ٠ وتصريحهم بالشك فـــى صدقه ٠ وزاد فى سورة الشعراء طلبهم الآية منه ٠ وكـــل ذلــك صحيح ومراد وهو المسنون المعتاد " [١]٠

وذكر الإمام ابن كثير [٢] : " أن قوم عاد وقوم ثمود كثيرا مـــا ذكروا مقترنيين " ٠

ويقال : إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهـــل الكتــاب ، وليس لهما ذكر فى التوراة ٠

أما القرآن الكريم فقد أخبرنا أن موسى ـ عليه السلام ـ قـــد أخبر عنهما قال تعالى : ﴿ **وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فـــى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم**

---

(١) أنظر تفسير المنار ج ٨ ص ٥٠٢ ٠

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٧٤ ، ١١٥ والبداية والنهاية ج ١ ص ١٣٤ ٠

نوح وعاذ وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، جاءتـــهم رسلهم بالبينات ﴾ [١].

وقال الإمام : والظاهر أن هاتين الأمتين من العرب لذلك لـــم يضبطوا بنى إسرائيل خبرهما جيداً .

وإن كان خبرهما كان مشهوراً فى زمان موسى عليه السلام .

وقد ذكر القرآن الكريم قصة قوم ثمود مع نبى الله صـــالح ـ عليه السلام ـ وناقته التى أيده الله بها . وأن القوم كانوا عـــاكفين على عبادة الأصنام فجاءهم نبى الله صالح يردهم عن الباطل قـــال تعالى : ﴿ **وإلى ثمود آخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكـــم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** ﴾ [٢] .

وقد نصحهم نبى الله صالح بأن يعبدوا الله وحده قال تعـــالى : ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ [٣].

نصحهم نبى الله صالح وذكرهم أنواع التذكير وخوفهم بأس الله فآمن به المستضعفون من قومه وكفر آخـــرون فـــألح عليـــهم أن يطيعوه ولا يتتبعوا المسرفين الذين يعيشون مفسدين فـــى الأرض . **يقول الإمام القرطبى** [٤] : " أى هو الذى خلقكم فأنشأكم مـــن الأرض ، وجعلكم عمارها ، أى أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمـــار ،

---

(١) سورة إبراهيم الآيتان ٨ ، ٩ .

(٢) سورة هود الآية ٦١ .

(٣) سورة الأعراف جزء من الآية ٧٣ .

(٤) أنظر الجامع لأحكام القرآن ج ١٣ ص ١٣ ، الطبرى ج ١٩ ص ٦٣ .

فهو الخالق الرزاق ، وهو الذى يستحق العبادة وحده لا ما سـواه ، قال تعالى : ﴿ **فاستغفروه ثم توبوا إليه** ﴾ [1] أى أقلعوا عما أنتـم فيه وأقبلوا على عبادته ، فإنه يقبل ويتجاوز عنكم ﴿ **إن ربى قريب مجيب** ﴾ [2] فقال المستكبرون منهم : ﴿ **أنزل عليـه الذكـر مـن بيننا** ﴾ [3] قالوا هذا استكباراً وعناداً على أن يكون نبيا وليس منهم أى أنهم استكبروا أن يتبعوا رجلاً فى نظرهم لا يمتاز عليهم بالغنى والثراء وتمادوا فى طغيانهم حتى قـالوا لمـن آمـن مـن القـوم ﴿ **أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنـا بمـا أرسـل بـه مؤمنون** ﴾ [4] فأجاب الذين استكبروا أو طغوا ﴿ **إنا بالذى آمنتـم به كافرون** ﴾ [5].

وقالوا له أيضا : ﴿ **إنما أنت من المسـحرين** ﴾ [6] أى مـن المسحرون يعنون مسحوراً لا تدرى لما نقول فى دعائك إيانا إلـى إفراد العبادة لله وحده ، وخلع ما سواه من الأنداد . وهـذا القـول عليه الجمهور ، وهو أن المراد بالمسحرين : المسحورين . وقيـل من المسحرين : أى ممن له سحر وهو الرائى والرائى هو الجنـى

---

(١) سورة هود الآية ٦١ .

(٢) سورة هود الآية ٦٢ .

(٣) سورة ص جزء من الآية ٨ .

(٤) سورة الأعراف جزء من الآية ٧٥ .

(٥) سورة الأعراف آية ٧٦ .

(٦) سورة الشعراء الآية ١٥٣ .

يعرض للإنسان ويطلعه على ما يزعم من الغيب [1] كأنهم يقولون إنما أنت بشر له سحر • والأول أظهر لقولهم بعد هذا : ﴿ **ما أنت إلا بشر مثلنا** ﴾ [2]

وقولهم : ﴿ **فأت بآية إن كنت من الصادقين** ﴾ •

ولما ألح عليهم نبى الله صالح وأكثر عليهم بالتحذير والتخويف سألوه أن يريهم آية خارقة تكون دليلا على صدق ما جاءهم به فقالوا : ﴿ **فأت بآية إن كنت من الصادقين** ﴾ [3].

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون (٤٥) قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون (٤٦) قالوا أطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون (٤٧)** ﴾ [4] •

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح ــ عليه السلام ــ حين بعثه الله إليهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ **فإذا هم فريقان يختصمون** ﴾ قال مجاهد : " مؤمن وكافر كقوله تعالى ﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا**

---

(١) أنظر لسان العرب ج ٥ ص ٨٩ •

(٢) سورة الشعراء الآية ١٥٤ •

(٣) سورة الشعراء الآية ١٥٤ •

(٤) سورة النمل الآيات ٤٥ : ٤٧ •

إنا بما أرسل مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون ﴾ ﴿ **قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة** ﴾ أى لم تدعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته .

ولهذا قال ﴿ **لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون * قالوا أطيرنا بك وبمن معك** ﴾ أى ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحد منهم سوء إلا قال هذا من قبل صالح وأصحابه قال مجاهد تشاءموا بهم .

... ﴿ **قال طائركم عند الله** ﴾ أى الله يجازيكم على ذلك : ﴿ **بل أنتم قوم تفتنون** ﴾ قال قتادة تبتلون بالطاعة والمعصية والظاهر أن المراد بقوله ﴿ **تفتنون** ﴾ أى تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال " [١] .

وطلب قوم ثمود من نبى الله صالح أن يأتيهم بآية تكون دليلا وعلامة على صدقه فقالوا له : ﴿ **فأت بآية إن كنت من الصادقين** ﴾ [٢] والآية هنا أمر خارق للعادة يدل على صدق ما جاءهم به فطلبوا منه أن يخرج لهم من صخرة أشاروا عليها ناقة من صفتها أنها جوفاء وبراء عشراء " أى مضى على حملها عشرة أشهر أو هى كالنفساء من النساء " [٣] فإن فعلت ذلك صدقناك وآمنا بك .

---

(١) انظر تفسير الإمام ابن كثير ج ٣ ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

(٢) سورة الشعراء الآية ١٥٤ .

(٣) لسان العرب ج ٩ ص ٢١٩ .

فقال لهم نبى الله صالح أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذى طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقونى فيما أرسلت به قالوا : نعم فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ثم قام ودعى الله وصلى فى مصلاه ما قدر له ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب قال : ﴿ **قال هذه ناقة** ﴾ قالها بعد ما أخرجها الله تعالى من الصخرة بدعائه ـ عليه السلام ـ ﴿ **لها شرب** ﴾ نصيب من الماء فلا تزاحموها فيه ﴿ **ولكم شرب يوم معلوم** ﴾ لا تزاحمكم فيه " (١).

يقول الإمام ابن كثير : " فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظرا هائلا وقدرة باهرة ودليلا قاطعا وبرهانا ساطعا فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ولهذا قال : ﴿ **فظلموا بها** ﴾ أى جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها أى أكثرهم ٠٠

ويقول الإمام ابن كثير : " إن فى إضافة الناقة لله فى قوله تعالى ﴿ **هذه ناقة الله لكم آية** ﴾ تشريف وتعظيم ودليلا على أنها معجزة من عند الله لذلك يجب أن يذروها تأكل فى أرض الله (٢) .

---

(١) أنظر تفسير البحر المديد ج ١٩ ص ١٥٥ والآية رقم ١٥٥ من سورة الشعراء ٠

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ١٢٦ ، ١٢٧ ٠ وقصص الأنبياء ص ١١٧ ٠

ثم حذرهم أن يمسوها بسوء . قال تعالى : ﴿ **قال هـذه ناقـة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسـوء فيـأخذكم عذاب يوم عظيم** ﴾ [1] كما قال وقد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيـأخذكم عذاب أليم ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ **وآتينا ثمـود الناقـة مبصـرة فظلموا بها** ﴾ [3] .

يقول الإمام ابن عجيبة [4] : " ﴿ **لها شرب** ﴾ نصيـب مـن الماء ، فلا تزاحموها فيه ﴿ **ولكم شرب يوم معلوم** ﴾ لا تزاحمكـم فيه ... وقوله تعالى : ﴿ **ولا تمسوها بسؤ** ﴾ بضرب أو عقر أو غير ذلك . ﴿ **فيأخذكم عذاب يوم عظيم** ﴾ وصف اليوم بـالعظيم لعظم ما يحل فيه وهو أبلغ من تعظيم العذاب .

ويقول الإمام ابن كثير [5] : " فاتفق الحال على أن تبقى هـذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يومـا بعد يوم وكان إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك فكـانوا يرفعون حاجتهم من الماء فى يومهم لغدهـم ويقـال إنـهم كـانوا يشربون من لبنها كفايتهم ولهذا قال : ﴿ **لها شرب ولكم شرب يـوم**

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٧٣ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٥٩ .

(٤) تفسير البحر المديد ج ١٩ ص ١٥٥ .

(٥) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ١٢٧ .

معلوم ﴾ ٠ ولهذا قال تعالى : ﴿ **إنا مرسلو الناقة فتنـــة لـــهم** ﴾ [١] أى اختباراً لهم أيؤمنون بها أم يكفرون والله أعلم بمــــا يفعلــون : ﴿ **فارتقبهم** ﴾ أى انتظر ما يكون من أمرهم ﴿ **واصطبر** ﴾ علـــى أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية ﴿ **ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كـل شرب محتضر** ﴾ [٢].

وقد كره أهل ثمود الناقة واستكبروا أن يكون لها يوم وحدهـــا تشرب فيه الماء ولأنعامهم كلها شرب يوم واحد ٠

وقيل أن الناقة كانت تشرب فى يومها من البئر بأرض الحجــر وهو يسمى الآن بئر الناقة ولا تدع منه شيئا ٠

وكانوا يحلبون لبنها ما شاء فيشـــربون ويدخـــرون ويمـــلأون أوانيهم ٠ وإذا جاء يومهم يشربون من البـــئر وتشـــرب أنعامـــهم ويدخرون من الماء ما يكفيهم فى يوم الناقة وكانوا فى سعة ونعمـــة وفكروا فى عقرها ٠

وزين الشيطان لهم أعمالهم قال تعـــالى : ﴿ **فعقـــروا الناقـــة وعتوا عن أمر بهم وقالو يا صالح أئتنا بما تعدنا إن كنـــت مـــن المرسلين** ﴾ [٣] ٠

---

(١) سورة القمر الآية ٢٧ ٠

(٢) سورة القمر الآية ٢٨ ٠

(٣) سورة الأعراف الآية ٧٧ ٠

يقول الإمام القرطبى [١] : " العقر : الجـــرح • وقيــل قطــع عضو يؤثر فى النفس • وعقرت الفـــرس : إذا ضربـــت قوائمـــه بالسيف وخيل عَقْرَى • وعقرت ظهر الدابة : إذا أدبرته [٢] . . .

فقيل إن الذى عقرها رئيسهم قدار بن سالف بن جنـــدع وكـــان أحر أزرق أصهب وكان يقال إنه ولد زانية ولد على فراش ســالف وهو ابن رجل يقال له صبيان وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم فلــهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم " [٣].

وذكر ابن جرير وغيره من المفسرين [٤] أن امرأتين من ثمود اسم أحدهما صدوق ابنة المحيا بن زهير بن المختار وكـــانت ذات حسب ومال وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته فدعت ابن عم لـــها يقال له مصرع بن مهرج بن المحيا وعرضت عليه نفسها أن هـــو عقر الناقة واسم الأخرى عنيزة بنت غنيم بـــن مجلــز وتكنـــى أم عثمان وكانت عجوزاً كافرة لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمـــر وأحد الرؤساء فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف إن هـــو عقر الناقة فله أى بناتها شاء فانتدب هذان الشابان لعقرها وســعوا فى قومهم بذلك فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تســعة وهـــو

---

(١) تفسير الجامع لأحكام القرآن ج ٧ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ •

(٢) أنظر لسان العرب ج ٩ ص ٣١٣ •

(٣) أنظر البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ١٢٧ وكذلك قصص الأنبياء ص ١٢٠ •

(٤) تفسير ابن جرير الطبرى ج ص وتفسير الإمام ســيد قطــب ج ٦ ص ٣٩١٨ ، ٣٩١٩ •

المذكورون فى قوله تعالى ﴿ **وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون** ﴾ [1] وسعوا فى بقية القبيلة وحسنوا لها عقرها فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم فى ذلك فانطلقوا يرصدون الناقة فلما صدرت من وردها كمن لها مصرع فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها وجاء النساء يزمرن القبيلة فى قتلها وحسرن [2] عن وجوههن ترغيبا لهم فابتدرهم قدار بن سالف فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها ساقطة إلى الأرض ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذر ولدها ثم طعن فى لبتها فنحرها وانطلق سقيها وهو فصيلها [3] فصعد جبلا منيعا ودعا ثلاثا .

ويقول الإمام ابن كثير فى تفسيره [4] : " يخبرنا تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر وتكذيب صالح وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة وهموا بقتل صالح أيضا بأن يبيتوه فى أهله ليلا فيقتلوه غيلة ثم يقولوا لأوليائه من أقربائه إنهم ما علموا بشئ من أمره وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك فقال تعالى : ﴿ **وكان فى المدينة** ﴾ أى مدينة ثمود ﴿ **تسعة رهط** ﴾ أى تسعة نفر

---

(١) سورة النمل الآية ٤٨ .

(٢) حسر الغطاء أى كشفه لسان العرب ج ٣ ص ١٦٧ .

(٣) الفصيل : ولد الناقة لسان العرب ج ١٠ ص ٢٧٣ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٣٦٧ ، ٣٧٨ .

﴿ **يفسدون فى الأرض ولا يصلحون** ﴾ وإنما غلب هـؤلاء علـى أمر ثمود لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم ·

قال العوفى عن ابن عباس : هؤلاء الذين عقـروا الناقـة أى الذين صدر ذلك على رأيهم ومشورتهم قبحهم الله ولعنهم ، وقد فعل ذلك ·

وقال السدى عن أبى مالك عن ابن عباس : كان أسماء هؤلاء التسعة دعمى ورعيم وهرم وهريم وأب وصواب ورباب ومسـطع وقدار ابن سالف عاقر الناقة أى الذى باشر ذلك بيـده ، قـال الله تعالى : ﴿ **فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر** ﴾ وقـال تعـالى : ﴿ **إذا انبعث أشقاها** ﴾ ···· والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة كان من صفاتهم الإفساد فى الأرض بكل طريق يقدرون عليها فمنـها مـا ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك · وقوله تعالى ﴿ **قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله** ﴾ أى تحالفوا على هلاكه فلم يصلوا إليه حتى هلكـوا وقومهم أجمعين ، وقال قتـادة تواثقـوا علـى أن يـأخذوه ليـلا فيقتلوه ؛ ··· **قال العوفى عن ابن عباس** : هم عقروا الناقة حيـن عقروها لنبيتن صالحا وأهله فنقتله ثم نقول لأولياء صالح ما شـهدنا من هذا شيئا وما لنا به من علم فدمرهم الله أجمعين ·

ويقول الإمام القرطبى (١) : " وقد اختلف على عاقر الناقة على أقوال : أصحها ما ذكر فى الصحيح من حديث عبد الله بن زمعـة

---

(١) تفسير الجامع لأحكام القرآن ج ٧ ص ٢٤١ ·

قال : خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذى عقرها فقال : " وإذا انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم منيع فى رهطه مثل أبى زمعة ... " [١].

وقيل فى اسمه : قدار بن سالف • وقيل : إن ملكهم كان إلى امرأة يقال لها ملكى ، فحدث صالحا لما مال إليه الناس ، وقالت لأمرأتين كان لهما خليلان يعشقناها : لا تطيعاهما واسألاهما عقر الناقة ؛ ففعلنا • وخرج الرجلان والجأ الناقة إلى مضيق ورماها أحدهما بسهم وقتلاها •

وجاء السقب وهو ولدها إلى الصخرة التى خرجت الناقة منها فرغا ثلاثا وانفجرت الصخرة فدخل فيها •

ـ ويقال : إنه الدابة التى تخرج فى آخر الزمان على الناس ؛ وقال ابن اسحاق : أتبع أربعة نفر ممن كان عقر الناقة ، مصدع وأخوه ذؤاب • فرماها مصدع بسهم فانتظم قلبه [٢] • ثم جر برجله فألحقه بأمه ، واكلوا معها •

ـ وقد أيد الإمام القرطبى الرأى الأول وقال إنه الأصح ـ فإن صالحا قال لهم : " إنه بقى من عمركم ثلاثة أيام ، ولهذا رغا ثلاثا وقيل : عقرها عاقرها ومعه ثمانية رجال ، وهم الذين قال الله

---

(١) عارم : خبيث شرير شرس أنظر تفسير سورة الشمس م ٢ ج ٦ ص ٢١٠ •

(٢) أنظره فى صحيح الإمام البخارى كتاب التفسير " سورة الشمس م ٢ ج ٦ ص ٢١٠ •

فيهم : ﴿ **وكان فى المدينة تسعة رهط** ﴾ ٠ وكانوا يشربون فأوعزهم المال ليمزجوا شرابهم ، وكان يوم لبن الناقة ، فقال أحدهم وترصد الناس وقال : لأريحن الناس منها ؛ فعقرها ٠

وأقول : الإختلاف فى عاقر الناقة ، أى فى اسمه من يكون لا يهم فالمهم هنا : أنهم اتبعوا شيطانهم وعصوا واستكبروا وعقروا الناقة وتناسوا عهدهم مع نبى الله صالح وتم العقر بتحريض الجميع ، وكذلك ليس المهم هنا معرفة اسم المرأتين ، ولا نوع العرض الذى عرض على القاتل ولكن المهم هنا أنه قد تم عرض لإغراء القاتل ، وجميع العاصين من أهل ثمود كانوا يحرضون على قتل الناقة ثم قتل نبى الله صالح عليه السلام ٠

قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبى الزبير عن جابر قال لما مر رسول الله ﷺ الحجر قال لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت يعنى الناقة ترد من هذا الفج [١] ٠ وتصدر من هذا الفج ﴿ **فعتوا عن أمر ربهم فعقروها** ﴾ ٠ وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها فأخذتهم صيحة اهمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحداً كان فى حرم الله ٠ فقالوا من هو يا رسول الله قال هو أبو رغال ٠ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه [٢]٠

---

(١) الفج : يقال فج الأرض أى شقها ، والفج الطريق الواضح بين جبلين أنظر : المصباح المنير ص ٤٦٢ ٠

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ص وهذا الحديث على شرط مسلم وليس هو فى شئ من الكتب الستة ٠

وعن ابن عباس قال لما مر النبى ﷺ بوادى عسفان حين حج قال يا أبا بكر أى واد هذا • قال واد عسفان قال لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمها الليف ، إزرهم العباء وأرديتهم الثمار يلبون يحجون البيت العتيق [1] ﴿ **وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا** ﴾ أى من العذاب • ﴿ **فأخذتهم الرجفة** ﴾ أى الزلزلة الشديدة •

وقيل : كانت صيحة شديدة خلعت قلوبهم قال تعالى فى سورة هود : ﴿ **وأخذ الذين ظلموا الصيحة . . . .** ﴾ [2].

يقال رجف الشئ يرجف رجفا ورجفانا • وارتجف الريح الشجر حركته • وأصله حركة مع صوت ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ **يوم ترجف الراجفة** ﴾ [3].

﴿ **فأصبحوا فى دارهم** ﴾ أى بلدهم • وقيل : وحد على طريق الجنس والمعنى فى دُررهم • وقال فى سورة هود ﴿ **فى ديارهم** ﴾ [4] أى فى منازلهم • ﴿ **جاثمين** ﴾ أى لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم ؛ كما يجثُم الطائر • أى صار واخا مدين من شدة العذاب وقيل : احترقوا بالصاعقة فأصبحوا ميتين ، إلا رجلا واحدا كان فى حرم الله ؛ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه •

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ص واسناده حسن

(٢) سورة هود الآية ٦٧ •

(٣) سورة النازعات الآية ٦ •

(٤) سورة هود الآية ٦٧ ، ٩٤ •

﴿ **فتولى عنهم** ﴾ أى عند اليأس منهم ٠ ﴿ **وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم** ﴾ يحتمل أنه قال ذلك قبل موتهم ٠ ويحتمل انه قاله بعد موتهم ٠

٠٠٠ والأول أظهر يدل عليه ﴿ **ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾ أى لم تقبلوا نصحى ٠

ولما عقروا الناقة قال لهم نبى الله صالح : ﴿ **تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام** ﴾ أى غير يومهم ذلك ونذكره إن طالبتنا أولياؤه يده ولهذا قالوا : ﴿ **ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون** ﴾ [١].

يقول الإمام ابن كثير [٢] : " ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ٠ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ٠ فتلك بيوتهم خاوية " أى فارغة ليس فيها أحد ﴿ **بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ [٣] وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذى قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم فأهلكهم سلفا وتعجيلا قبل قومهم ٠٠

وأصبحوا فى اليوم الأول من النظرة وجوههم صفرة واليوم الثانى أصبحوا ووجوههم محمرة فلما أمسوا نادوا : ألا قد مضى

---

(١) سورة النمل الآية ٤٩ ٠

(٢) تفسير الإمام ابن كثير ج ٣ ص ٣٦٨ وقصص الأنبياء ص ١٢٠ ، ١٢١ ٠

(٣) سورة النمل الآيات ٥٠ ــ ٥٣ ٠

يومان من الأجل • ثم أصبحوا فى اليوم الثالث من أيـــام المتـاع ووجوههم مسودة فلما أمسوا نادوا : ألا قد مضى الأجل •

وقد كان ذلك كلما أنذرهم صالح ــ عليه السلام ــ وفى اليـوم الرابع أصابتهم صيحة السماء من فوقهم ورجفة من أسفل منـــهم • ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركـــات ، وخشـعت الأصوات ، وحفت الحقائق ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، لا روح فيها ولا حركة بها •

وهنا يختم لنا الإمام سيد قطب سرد قصة ناقة صــالح الآيـة المعجزة التى كانت سببا فى عذابهم وعقابـــهم فيقـول : " عندئـذ تتحرك يد القدرة لتبطش البطشة الكبرى : ﴿ **فدمدم عليهم ربـــهم بذنبهم فسواها** ﴾ [1] .

والدمدمة الغضب وما يتبعه من تنكيل • واللفــظ ذاتــه •• " دمدم " يوحى بما وراءه ، ويصور معناه بجرسه ، ويكـــاد يرسـم مشهداً مروعا مخيفاً ! وقد سوى الله أرضهم عاليها بسافلها ، وهـو المشهد الذى يرتسم بعد الدمار العنيف الشـــديد •• ﴿ **ولا يخـاف عقباها** ﴾ •• سبحانه وتعالى •• ومن ذا يخاف ؟ وماذا يخـاف ؟ وانى يخاف ؟ وإنما يراد من هذا التعبير لازمــه المفـهوم منــه • فالذى لا يخاف عاقبة ما يفعل ، يبلغ غاية البطش حين يبطـــش •

---

(١) سورة الشمس جزء من الآية ١٤ •

وكذلك بطش الله كان : إن بطش ربك لشديد فهو إيقاع يراد إيحاؤه وظله فى النفوس ..

وهكذا ترتبط حقيقة النفس البشرية بحقائق هذا الوجود الكبيرة ومشاهده الثابته ، كما ترتبط بهذه وتلك سنة الله فى أخذ المكذبين والطغاة ، فى حدود التقدير الحكيم الذى يجعل لكل شئ أجلا ، ولكل حادث موعدا ، ولكل أمر غاية ، ولكل قدر حكمة ، وهو رب النفس والكون والقدر جميعاً " (١).

وهكذا تنقلنا الآيات الكريمة بالتدبر والتفكر فى نعم الله سبحانه وتعالى على البشرية بالهداية ولم يتركهم للضلال والغواية ومن نعمه سبحانه وتعالى أن أرسل إليهم الرسل من فترة إلى أخرى كلما قست القلوب وتجمدت وانحرفت البشرية عن الحق فتاتى الرسالة السماوية لتعد لهم إلى طريق الصواب وهذا هو ما تشير إليه القصة القرآنية سالفة الذكر " قصة ناقة صالح " ومع تنوع القصص حسب تنوع الوقائع والأحداث نجد أن الإعجاز القرآنى متحقق فى كل قصة وكل آية حيث اتساق العبارة مع المعنى فقد عبرت القصة عن الواقعة وسردت الخبر بعبارات متنوعة ومعان متعددة ومع هذا نجد اتساق العبارة مع المعنى متحققاً فقد تحقق الإعجاز القرآنى من خلال السرد الحقيقى لأمر حسى وقع فى زمن ماضى وهو أمر يعجز عنه الفصحاء والبلغاء إلى جانب ما تحققه القصة من عبر

---

(١) أنظر فى ظلال القرآن للإمام سيد قطب ج ٦ ص ٣٩١٩ .

وعظات يتعظ بها العقلاء ويغفل عنها البلهاء ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإنه قد تحقق جانب التسلية لرسول الله ﷺ والتخفيف عنه من ألم كيد الكائدين وحقد الحاقدين وقد صدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين** ﴾ (١).

كما تحقق الإعجاز القرآنى من خلال هذه القصة وغيرها لما فى هذا من معرفة وإحاطة لأخبار أمم سابقة وما وقع لهم وعليهم وما كان لبشر أن يلم بهذا كله سواء فى زمن رسول الله ﷺ أو فى سابقه وهنا يقول المولى تبارك وتعالى : ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا .** ﴾ (٢)

والله تبارك وتعالى أعلم .

---

(١) سورة هود الآية ١٢٠٠

(٢) سورة مريم الآية

المبحث السادس

قصة أصحاب الفيل

إن من قصص القرآن الكريم ما فيه ذكر لبعض أخبار الشعوب القديمة ، التى بادت مثل قوم عاد ، وثمود وسبأ وأصحاب الأخدود وأصحاب الفيل ، وهذا القصص وغيره إن كان إخباراً عن حوادث حقيقية حدثت فى الماضى فهى كذلك تأكيداً على صدق رسول الله ﷺ إلا أنها للفكر والروح بما تضمنته من دعوة إلى توحيد الله الواحد الأحد إذ يقول تعالى ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد** ﴾ (١)

وقصة أصحاب الفيل ذكرت فى القرآن الكريم فى سورة مستقلة تحمل السورة اسم سورة " الفيل " .

قال تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم فى تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ (٢) .

يقول الإمام الواحدى " نزلت فى قصة أصحاب الفيل وقصدهم تخريب الكعبة وما فعل الله بهم من إهلاكهم وصرفهم عن البيت وهى معروفة " (٣).

---

(١) سورة هود الآية ١٠٠ .

(٢) سورة الفيل .

(٣) أسباب النزول للإمام الواحدى ص ٣٤٢ .

وقد أفردت معظم كتب التفسير قصة أصحاب الفيل كذلك بعض كتب التاريخ الإسلامى مثل تاريخ الطبرى والبداية والنهاية للإمام ابن كثير ٠

وقصص القرآن للعلماء الأفاضل منهم جاد المولى ، والفضل إبراهيم ، ومحمد البجاوى ، والسيد شحاته ٠ وغير هم ٠

وهذه الحادثة ثابتة بالقرآن الكريم ــ كما بينا ــ وبالسنة النبوية الشريفة فقد قال رسول الله ﷺ يوم الحديبية حين بركت ناقته القصواء " وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس والفيل ٠٠ " (١)

وقال ﷺ يوم فتح مكة : " إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليهم رسول الله ﷺ والمؤمنين ، وأنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب " (٢).

والفيل الحيوان المعروف " والجمع " أفيال : و " فُيول " و " فِيَلَة " قال ابن السكِيت : ولا تقل أفيلة ٠ والأنثى " فيلة " وصاحبها " فَيَّال" ٠ قال سيبويه : يجوز أن يكون أصل فيل فُعلا ، فكسر من أجل الياء ؛ كما قالوا : أبيض وبيض ٠

---

(١) أخرجه البخارى ــ كتاب الشروط ــ باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ج ٣ ص ١٧٨ ط دار الفكر ٠

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ــ كتاب اللقطة ــ باب كيف تعرف لقطة أهل مكة ج ٣ ص ٩٤ ط دار الفكر ، وصحيح مسلم كتاب الحج باب تحريم مكة وصيدها ج ٤ ص ١٠٩ دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ٠

وقال الأخفش : وهذا لا يكون فى الواحد ، إنمـا يكـون فـى الجمع ورجل فيل الرأى ، أى ضعيف الـرأى • والجمـع أفيـال ورجل فَال ، أى ضعيف الرأى ، مخطئ الفراسة • وقد قال الـرأى تِفيل فُيولة ، وفَيّل رأيه تفييلاً : أى ضعفه فهو فيّل الرأى " [١].

قال الإمام القرطبى : " قال مقاتل : كان عام الفيل قبل مولـد النبى ﷺ بأربعين سنة • وقال الكلبى وعبيد بن عمير : كان قبـل مولد النبى ﷺ بثلاث وعشرين سنة •

والصحيح ما روى عن النبى ﷺ أنـه قـال : " ولـدت عـام الفيل " • وروى عنه أنه قال : " يوم الفيل " •

••• وقال فى كتاب أعلام النبوة : ولد رسـول الله ﷺ يـوم الأثنين الثانى عشر من ربيع الأول ، وكان بعد الفيل بخمسين يومـا • ووافق من شهور الروم العشرين من أسباط فى السنة الثانية عشرة من ملك هرمز بن أنو شروان • قال : وحكى أبو جعفر الطبرى أن مولـد النبى ﷺ كان لاثنين وأربعين سنة من ملك أنو شروان • وقد قيل : إنه عليه السلام حملت به أمه آمنة فى يوم عاشوراء من المحرّم ، وولد يوم الأثنين لأثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ؛ فكانت مـدة حملة ثمانية أشهر كملا ويومين مـن التاسـع • وقيـل : إنـه ولـد

---

(١) أنظر لسان العرب ج ١٠ ص ٣٧٠ ، ٣٧١ •

يوم عاشوراء من شهر المحرم ؛ حكاه ابن شاهين أبو حفص ، في فضائل يوم عاشوراء له ٠

وقال ابن العربى : " قال ابن وهب عن مالك : ولد رسول الله ﷺ عام الفيل ، وقال قيس بن مَخْرمة : ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل " ٠ (١)

قال علماؤنا : كانت قصة الفيل فيما بعد من معجزات النبى ﷺ ، وإن كانت قبله وقبل التحدّى ؛ لأنها كانت توكيداً لأمره ، وتمهيداً لشأنه ٠ ولما تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه السورة ، كانت بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الوقعة ؛ ولهذا قال : ﴿ **ألم تر** ﴾ ٠

ولم يكن بمكة أحد إلا وقد رأى قائد الفيل وسائقه أعميين يتكففان الناس " (٢).

وكذلك يقول الإمام سيد قطب : " فالحادث كان معروفا للعرب ومشهوراً عندهم ، حتى لقد جعلوه مبدأ تاريخ ٠ يقولون حدث كذا عام الفيل ، وحدث كذا قبل عام الفيل بعامين ، وحدث كذا بعد عام الفيل بعشر سنوات ٠٠ والمشهور أن مولد رسول الله ﷺ كان عام الفيل ذاته ٠ ولعل ذلك من بدائع الموافقات الإلهية المقدرة !

وإذاً فلم تكن السورة للإخبار بقصة يجهلونها ، إنما كانت تذكيراً بأمر يعرفونه ، المقصود به ما وراء هذا التذكير " (٣).

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٤ ص ٢١٥ ٠

(٢) أنظر تفسير الإمام القرطبى ج ٢٠ ص ١٩٤ ، ١٩٥ ٠

(٣) أنظر تفسير السيد قطب ج ٦ ص ٣٩٧٩ ٠

وجميع كتب التفسير [1] قصت لنا قصة أصحاب الفيل من خـــلال تفسير سورة الفيل التى تشير إلى حادثة من أشهر الحـــوادث التـــى ظهرت فى الجزيرة العربية قبل البعثة ٠

هذا الحادث الذى كان من أعظم الدلائل على حماية المولى عز وجل لبيته المقدس ومجمل القصة أن الحاكم الحبشى لليمن وكـــان يسمى " أبرهة " فى إحدى الروايات التى ذكرت ـ وسواء كان هذا إسمه أم لا فلا يؤثر فى دلالة القصة وحكمتها ٠ علـــم أن العـــرب يقدسون البيت الحرام فى مكة وقد رأى أن أهل اليمن يزورون هـذا البيت بل يندفعون إليه شأنهم شأن بقية العرب ٠ فبنى كنيســـة فـــى اليمن وجمع فيها كل أسباب الفخامة وكان غرضه صرف العـــرب عن بيت الله الحرام ومع ما أحيطت به الكنيسة من عناية ورعايـــة من مالكها إلا أنها لم تصرف العرب عن بيتهم المقدس صاحب هذا البيت العتيق وكان هذا مصدر إعزاز وتقدير وفخر لهم ٠

لذلك عزم أبرهة على هدم هذا البيت الذى جذب كل العرب وجـهز جيشا عظيماً جراراً تصاحبه الفيلة ويتقدمها فيل ضخم وكـــانت الفيلـــة حيوان غريب على بلاد العرب غير معروفة ذو شهرة عندهم ٠

وعلم العرب بما قصده أبرهة ، فوقف فى طريقه رجـــل مـــن أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر ، فدعا قومه ومن أجابه

---

(١) أنظر تفسير الإمام سيد قطـــب ج ٦ مـــن ص ٣٩٧٤ : ص ٣٩٧٩ وتفســـير الإمام القرطبى ج ٢٠ ص ١٨٧ : ص ٢٠٠ ٠

من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عـن البيـت الحـرام ، فأجابه البعض وتعرضوا لأبرهة وجنوده ولكـن أبرهـة اسـتطاع التغلب عليهم وهزمهم وأسر أبرهة قائدهم .

وفى أثناء سير أبرهة تعرض له نفيل ابن حبيب الخثعمى ومعه نفر كثير فهزمهم أيضا وأخذ نفيلا أسيراً ، الذى قبل بعد ذلـك أن يكون دليلاً لأبرهة فى أرض العرب . حتى وصل الطائف فـأخبره رجلاً أن البيت الذى يقصده ليس عندهم إنما هو فى مكة [1] وبعثـوا مع أبرهة من يدلهم على طريق مكة لأنهم كانوا قد بنو بيتا لـ : اللات فخافوا عليه .

ولما وصل أبرهة المغمس وهو كان بين الطائف ومكة أرسـل قائداً من جيشه إلى مكة فساق إليه أموالا وبعيراً كانت لتهامة وكـان لعبد المطلب جد رسول الله ﷺ مائتى بعـير وهـو كبـير قريـش وسيدها .

وعندما همت قريش بقتال أبرهة ، عرفوا أنه قادم بجيش جرار ومعه الفيلة فعلموا أنهم لا قبل لهم بقتاله وانهم لا طاقة لهم به .

وأرسل أبرهة رسولاً إلى مكة يسألهم عن سيد هذا البلد ويبلغهم أن الملك لا يريد حربا ولكن يريد هدم البيت وإذا لم يتعـرض لـه أحد فلا حاجة له فى دمائهم .

---

(١) ذكر فى سيرة ابن هشام أنه كان بالطائف بيت وكانوا يعظمونه نحـو تعظيـم الكعبة ج ص ٣٠ طبعة أوربا .

وذهب عبد المطلب سيد قريش لمقابلة أبرهة وعندما رآه أبرهة قدره وأجله لأن عبد المطلب كانت له مهابة فأكرمه وأجلسه بجواره على بساطه ٠

ثم سأله عن حاجته ، فقال عبد المطلب : حاجتى أن ترد على مائتى بعير أصابها لى جنودك ٠

وعندما قال ذلك سيد قريش زهده الملك وقال له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك وكبرت فى نظرى والآن زهدت فيك أتكلمنى فى بعير أصبتها لك ولم تكلمنى فى البيت الذى هو دينك ودين آبائك وأنت تعلم أننى جئت لهدمه ٠

فرد عليه عبد المطلب مبينا للملك أنه هو رب الإبل أما البيت فله رب يحميه وسيمنعه ، قال له الملك : " ما كان ليمتنع منى فرد عليه عبد المطلب أنت وذاك فرد عليه إبله ٠

ثم انصرف سيد قريش ذاهبا إلى مكة وأخبرهم بما حدث وأمرهم بالصعود إلى الجبال خارج مكة ودعا أهل مكة الله أن ينصر بيته ٠

هذا موقف سيد قريش وأهلها ٠

أما أبرهة فتوجه بجيشه وفيله إلى مكة ولكن هنا كانت المعجزة الكبرى وهنا كان دفاع الرب عن بيته برك الفيل وامتنع من دخول مكة وكان كما قال عنه رسول الله ﷺ حبسه حابس ٠

ثم حدثت المعجزة الثانية في دفاع رب البيت عن بيته وهـى إرسال المولى عز وجل جماعات من الطير ترميهم بحجـارة مـن جهنم تحصدهم حصدا ٠

يقول عز من جل ﴿ **وأرسل عليـهم طـيراً أبـابيل ترميـهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ ٠

قال ابن كثير [١] : ﴿ **وأرسل عليـهم طـيراً أبـابيل** ﴾ هـى الأقاطيع كالإبل المؤبلة ٠٠ وعن ابن عباس ﴿ **وأرسل عليهم طيراً أبابيل** ﴾ قال لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كـأكف الكـلاب ٠٠٠ عن عبيد بن عمير ﴿ **طيراً أبابيل** ﴾ قال هى طيور بحريـة فى مناقيرها وأظافيرها الحجارة وهذه أسانيد صحيحة " ٠

وقد ذكر لفظ ﴿ **طير** ﴾ منكراً ٠

قال العلماء [٢] : " ذكر الطير منكراً إما للتحقير فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله فيه أعجب وأكبر ، وما تعظم بـه القـدرة أن يؤخذ من استعز بالفيل وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسـماً ويكون إهلاكه بحيوان صغير جداً بالنسبة لـه لا يـدرك بـالبصر بسهولة حيث ساقه القدر لا ريب عند العاقل أن هذا اكبر واعجـب

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١ ص ٥٥١ ٠

(٢) أنظر تفسير الإمام القرطبـى ج ٣٠ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ ط مصطفـى البـابى الحلبى ، فى ظلال القرآن ج ٣٠ ص ٣٩٧٩ ، ٣٩٨٠ دار الشروق وتفسـير ابن كثير ج ٧ ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ دار الأندلس ن الكشـاف ج ٤ ص ٢٨٦ ط دار المعرفة بتصرف ٠

وأبهر وإما للتعظيم والتفخيم كأنه يقول ظهيراً كأى طير ترمى بحجارة صغيرة فلا تخطئ المقتل ٠

قال مجاهد : " أبابيل متتابعة مجتمعة ٠ وقال ابن عباس ﴿ **من سجيل** ﴾ هى سَنْك وَكِلْ " [١] ٠

قال الإمام ابن حجر فى فتح البارى [٢] : " قول ابن عباس : من سجيل هى سنك وكل " وصلة الطبرى من طريق السدى عن عكرمة عن ابن عباس قال : سنك وكل ، طين وحجارة ٠٠٠ وروى الطبرى من طريق عبد الرحمن بن سليط قال : هى بالأعجمية سنك وكل ٠ ومن طريق حصين عن عكرمة قال : كانت ترميهم بحجارة معها نار ، قال : فإذا أصابت أحدهم خرج به الجدرى ، وكان أول يوم رؤى فيه الجدرى ٠

وتختلف الروايات هنا فى تحديد نوع هذه الجماعات من الطير ، وأشكالها ، وأحجامها ، وأحجام هذه الحجارة ونوعها وكيفية فعلها ٠ كما أن بعضها يروى أن الجدرى والحصبة ظهرا فى هذا العام فى مكة ٠

ويرى الذين يميلون إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبات وإلى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عملها ، وأن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدرى والحصبة أقرب وأولى ٠

---

(١) صحيح الإمام البخارى م ٢ ج ٦ كتاب التفسير ص ٢١٨ ٠

(٢) فتح البارى شرح أحاديث البخارى ج ص ٠

وأن الطير قد تكون هي الذباب والبعوض التي تحمل الميكروبات ، فالطير هو كل ما يطير •

وأرى أن ما قاله **الإمام الشيخ محمد عبده** فى كون ظهور وانتشار مرض الجذرى والحصبة فى الجزيرة العربية بعد نزول الحيوانات التى تحمل بأرجلها حجارة من الطين المسموم اليابس كلام فيه نظر •

أولا : قوله إنها حيوانات فهذا إن سلم أن الطير من قبيل الحيوانات كما ذكر علماء علم " الحيوان " إلا أنه كان الأولى أن يطلق عليهم لفظ الطير كما جاء فى القرآن •

ثانيا : أن القرآن الكريم قد أخبر بأن الحجارة التى كانت تحملها الطيور كانت من جهنم فقد قال تعالى : ﴿ **حجارة من سجيل** ﴾ ولا يمنع أن بسبب كثرة القتلى والجرحى نشر الأوبئة والأمراض التى منها الجدرى والحصبة وغيرها •

والمهم أن عملية الإهلاك قد تمت وأن إرسال الله الطير لإهلاك أعداء البيت نعمة غمر الله بها حرمه وأهله نعمة كانت نقمة بأعدائه ـ أصحاب الفيل ـ الذين أرادوا الاعتداء على البيت لذا فإننى أميل إلى ما قاله الإمام سيد قطب [1] فى هذا : " ونحن لا نرى أن هذه الصورة التى افترضها الأستاذ الإمام ـ صورة الجدرى أو الحصبة من طين ملوث بالجراثيم ـ أو تلك التى جاءت

---

(١) تفسير سيد قطب ج ٦ ص ٣٩٧٧ ، ٣٩٧٨ •

بها بعض الروايات من أن الحجارة ذاتها كانت تخـــرق الـــرؤوس والأجسام وتنفذ منها وتمزق الأجساد فتدعها كفتـــات ورق الشـــجر الجاف وهو " العصف " ٠٠ لا نرى أن هذه الصورة أو تلـــك أدل على قدرة الله ، ولا أولى بتفسير الحادث ٠ فهذه كتلك فى نظرنـــا من حيث إمكان الوقوع ٠ ومن حيث الدلالة على قدرة الله وتدبـــيره ، ويستوى عندنا أن تكون الســـنة المألوفـــة للنـــاس ، المعـــهودة المكشوفة لعلمهم ، هى التى جرت فأهلكت قوماً أراد الله إهلاكهم ٠ أو أن تكون سنة الله قد جرت بغير المألوف للبشر ، وغير المعـــهود المكشوف لعلمهم ، فحققت قدره ذاك ٠

إن سنة الله ليست فقط هى ما عهده البشر وما عرفوه ٠ ومـــا يعرف البشر من سنة الله إلا طرفاً يسيراً يكشفه لـــهم بمقـــدار مـــا يطيقونه ، وبمقدار ما يتهيأون له بتجاربهم ومداركهم فـــى الزمـــن الطويل ، فهذه الخوارق ــ كما يسمونها ــ هي مـــن ســـنة الله ٠ ولكنها خوارق بالقياس إلى ما عهدوه وما عرفوه !

ومن ثم فنحن لا نقف أما الخارقة مترددين ولا مؤولين لـــها ــ متى صحت الرواية ــ أو كان فى النصوص وفى ملابسات الحادث ما يوحى بأنها جرت خارقة ، ولم تجـــر علـــى مـــألوف النـــاس ومعهودهم ٠ وفى الوقت ذاته لا نرى أن جريان الأمر على الســـنة المألوفة أقل وقعاً ولا دلالة من جريانه على السنة الخارقة للمـــألوف ٠ فالسنة المألوفة هى فى حقيقتها خارقة بالقياس إلى قدرة البشـــر ٠٠

إن طلوع الشمس وغروبها خارقة ــ وهى معهودة كل يــوم ــ وإن ولادة كل طفل خارقة ــ وهى تقع كل لحظة ، وإلا فليجــرب مــن شاء أن يجرب ! وإن تسليط طير ــ كائنا ما كان ــ يحمل حجــارة مسحوقة ملوثة بميكروبات الجدرى والحصبة وإلقائــها فــى هــذه الأرض ، فى هذا الأوان ، وإحداث هذا الوباء فى الجيــش ، فــى اللحظة التى يهم فيها باقتحام البيت ٠٠ إن جريان قدر الله على هذا النحو خارقة بل عدة خوارق كاملة الدلالة على القدرة وعلى التقديــر ٠ وليست بأقل دلالة ولا عظمة من أن يرسل الله طيراً خاصاً يحمــل حجارة خاصة تفعل بالأجسام فعلاً خاصاً فى اللحظة المقــررة ٠٠ هذه من تلك ٠٠ هذه خارقة وتلك خارقة على السواء ٠٠

فأما هذا الحادث بالذات ، فنحن أميل إلى اعتبار أن الأمر قــد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة ، وأن الله أرســل طــيراً أبابيل غير معهودة ــ وإن لم تكن هناك حاجة إلى قبول الروايــات التى تصف أحجام الطير وأشكالها وصفاً مثيراً ، نجد له نظائر فــى مواضع أخرى تشى بأن عنصر المبالغة والتهويل مضــاف إليــها ! ــ تحمل حجارة غير معهودة ، تفعل بالأجسام فعلاً غير معهود ٠٠

نحن أميل إلى هذا الاعتبار ٠ لا لأنه أعظم دلالــة ولا أكــبر حقيقة : ولكن لأن جو السورة وملابســات الحــادث تجعــل هــذا الاعتبار هو الأقرب ٠ فقد كان الله ــ سبحانه ــ يريد بهذا البيــت أمراً ٠ كان يريد أن يحفظه ليكون مثابة للناس وأمنــاً ٠ وليكــون

نقطة تجمع للعقيدة الجديدة تزحف منه حـــرة طليقـــة ، فـــى أرض حرة طليقة ، لا يهيمن عليها أحد من خارجها ، ولا تسيطر عليـــها حكومة قاهرة تحاصر الدعوة فى محضنها ٠ ويجعل هذا الحـــادث عبرة ظاهرة مكشوفة لجميع الأنظار فى جميـــع الأجيـــال ، حتـــى ليمتن بها على قريش بعد البعثة فى هذه السورة ، ويضر بها مثـــلاً لرعاية الله لحرماته وغيرته عليها ٠٠ فما يتناسق مـــع جـــو هـــذه الملابسات كلها أن يجئ الحادث غير مألوف ولا معـــــهود ، بكـــل مقوماته وبكل أجزائه ولا داعى للمحاولة فى تغليب صورة المألوف من الأمر فى حادث هو فى ذاته وبملابساته مفرد فذ ٠٠

وبخاصة أن المألوف فى الجدرى أو الحصبة لا يتفق مع مـــا روى من آثار الحادث بأجسام الجيش وقـــائده ، فـــإن الجـــدرى أو الحصبة لا يسقط الجسم عضواً وأنملة أنملة ، ولا يشـــق الصـــدر عن القلب ٠٠

وهذه الصورة هى التى يوحى بها النص القرآنى : ﴿ **فجعلـــهم كعصف مأكول** ﴾ ٠٠ إيحاء مباشراً قريباً ٠

ورواية عكرمة وما حدث به يعقوب بن عتبة ليست نصاً فـــى أن الجيش أصيب بالجدرى ٠ فهى لا تزيد علــــى أن تقـــول : إن الجدرى ظهر فى الجزيرة فى هذا العام لأول مرة ٠ ولم ترد فـــى أقوالهما أية إشارة لأبرهة وجيشه خاصة بالإصابة بهذا المرض ٠٠ ثم إن إصابة الجيش على هذا النحو وعدم إصابة العرب القريبين بمثله

فى حينه تبدو خارقة إذا كانت الطير تقصد الجيش وحده بما تحمل .
وما دامت المسألة خارقة فعلام العناء فى حصرها فى صورة معينة
لمجرد أن هذه الصورة مألوفة لمدارك البشر ! وجريان الأمر على
غير المألوف أنسب لجو الحادث كله ؟ !

ومن خلال هذه القصة القرآنية نعلم ونتعلم أن المقصود بها
التذكير بنعمة الله سبحانه وتعالى ؛ حيث إن هذه القصة لم تكن
مجهول بالنسبة لقريش فقد فضحت هذه القصة مكر أعداء الله
وبينت أن مكرهم لا يبلغ هدفه أو غايته وهذا هو شأن من يضل
الطريق .

وفى هذا تذكير لقريش بما أنعم الله عليهم من حماية البيت
العتيق بعد أن عجزوا عن حمايته فقد جاءت السورة القرآنية
الكريمة لتصف هؤلاء الضالين بالوصف الدقيق البليغ الذى هو
شأن الوصف القرآنى للوقائع والأحداث فقد جعل الله سبحانه وتعالى
كيدهم فى تضليل ، حيث أرسل عليهم أسراباً من الطير ترميهم
بحجارة من سجيل فصاروا كالعصف المأكول وهو الجاف من
ورق الشجر وقد وصف بأنه مأكول لكونه فتيت طحين حين تأكله
الحشرات وتمزقه أو حين يأكله الحيوان فيمْضغه ويطحنه .

فيالها من صورة حسية رائعة بينت مدى ما فعلته الأحجار التى
رمتها أسراب الطير .

فامتزجت الصورة الحسية بالصورة المعنوية من خلال القصة القرآنية التى أشارت عن هذا الجانب من أخبار الأمم الماضية فتحققت العبرة والعظة وقد عرف كل من يتعدى حدود الله وينتهك مقدساته أن مصيره الدمار والهلاك ، حيث لا يعلم جند الله إلا الله وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو** ﴾ [1].

---

(١) سورة المدثر الآية ٣١ .

الخاتمة

إن القصص القرآنى العظيم جاء بأسلوب يعد حقيقة من أعظم الأساليب فى التقويم والتربية والهداية وهذا هو شأن الأسلوب القرآنى المعجز فبجانب ما اشتمل عليه من إعجاز جاء كذلك ليربى النفس البشرية ويسموا بالأفراد والجماعات من عالم الشهوة إلى عالم الروحانيات ٠

كما أن القصص القرآنى اشتمل على المبادئ والمعانى والأخلاق التى تسموا بالبشرية إلى أعلى درجات التحضر ، حيث إن التحضر والرقى إلى درجة الإنسانية ليس فى الرقى المادى وإنما هو برقى الأخلاق وسمو المبادئ ، وهذا هو ما أراده رب العزة لخليقته فى الأرض حيث أراد له أن يرفعه من عالم الحيوانية إلى عالم الإنسانية ٠

كذلك فإن القصص القرآنى ينير للإنسان سبل الحق ويدفعه إلى الخير بما اشتمل عليه من تنفير للنفس من الأعمال السيئة وتحفيزها إلى الخير والأخذ بسبل الإستقامة ، وأخذ العبر من الوقائع والأحداث ٠

إن القصص القرآنى له تأثير عظيم على النفس البشرية بما يبثه فيها من روحانية لا يمكن أن نصل إلى مداها بما ملكته البشرية من وسائل وتقنيات حديثة وهذا من سر الإعجاز القصصى القرآنى ، لذا فإنه عامل مؤثر فى كافة

مجالات الحياة وخاصة فى ميـــادين التربيــة والتعليــم وتــهذيب السلوك ، حيث إنه تأثير من لدن عليم خبـــير ، لــذا فــإن علــى المؤسسات التربوية المختلفة أن تــأخذ أو تتجــه إلــى القصــص القرآنى لتكوين النشئ وبث الإســتقامة فيــهم .

أليس هناك قصصا أحسن من قصــص القــرآن الكريــم ولا عرضاً لأحداث التاريخ والأيام والوقــائع أعظــم ممــا عرضــه الله تبارك وتعالى فى قرآنـــه العظيــم ، قــال تعــالى : ﴿ **نحــن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليــك هــذا القــرآن وإن كنت من قبله لمن الغـــافلين** ﴾ (١) .

إن من القصص القرآنـــى مــا جــاء ليثبــت الله بــه قلــب الرســول ﷺ ، وفيــه كذلــك الموعظــة الحســـنة والذكـــرى للمؤمنين قال تعالى : ﴿ **وكلا نقص عليــك مــن أنبــاء الرســل ما تثبت به فؤادك وجاءك فى هـــذه الحــق وموعظــة وذكــرى للمؤمنيــن** ﴾ (٢) .

إن القصــص القرآنـــى فيــه الـــدواء الشـــافى للنفـــس البشــرية حيــث يعــالج مــا يلــم بــها مــن همــوم نتيجـــة الأحــداث ونوائــب الدهــر بمــا يثبتــه فيــها مــن روحانيـــة وطمأنينـــة وإحســاس بالأمــان حيــث إن الأمــر كلـــه بيـــد

---

(١) سورة يوسف الآية ٣ .

(٢) سورة هود الآية ١٢٠ .

الرحمن وهو هدف عظيم من أهداف القصص القرآنى وهذا ما نلحظه واضحا فى الآيات التى اشتملت على قصص يركز على جوانب العقيدة وإقامتها فى النفس البشرية تتبلور عظمة القصص القرآنى من خلال ما نأخذه منه من قصة فردية تأتى بأسس ومبادئ تصلح لبناء المجتمع بأسره وهو ما نلحظه واضحاً فى قصة ابن أم مكتوم ، فهى واقعة شخصية إلا أنها أرست أسساً وقيماً إنسانية عالية المستوى حيث بينت أن الحياة البشرية لا تقوى ولا تستقر إلا بإقرار الميزان الإلهى وانتصار القيم والمبادئ ، فمن خلال هذه القصة العظيمة أرست الشريعة الإسلامية مبدءاً عظيماً ، هو عدم التفرقة بين بنى البشر ، فلا فرق بين أسود وأبيض ، أو قوى وضعيف ، أو غنى وفقير إلا بتقوى الله ، وما يتميز به الإنسان من قيم ومبادئ .

وفى هذه المبادئ العظيمة هجر للعصبية ، وهجر للعنصرية وتقدم ورقى ، وتحضر للإنسانية ، فقد نادى القرآن الكريم من خلال هذه المبادئ العظيمة منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان بما يسمى الآن بحقوق الإنسان ، فإذا كان فى العالم من ينادى بحقوق

الإنســـان فإننـــا أولـــى بـــهذا منـــهم لكـــون هـــذا أمـــر قررتـــه الشـــريعة الإســـلامية وربـــت عليـــه النفـــس الإنســـانية وغـــير هذا الكثير مـــن مبـــادئ وأســـس وعـــبر تـــأخذ مـــن القصـــص القرآنى الذى يركـــز علـــى اســـتقامة النفـــس البشـــرية ليتمـــيز الإنسان فى شـــرع الله عـــن بـــاقى المخلوقـــات الأخـــرى .

والله تبارك وتعـــالى أعلـــم

د / مهجة غالب عبد الرحمن هاشم
أستاذ مساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة
جامعة الأزهر

فهرس المراجع

١ ـ إعجاز القرآن فى دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها ـ عبد الكريم الخطيب ـ دار الفكر العربى الطبعة الأولى ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٤ م مطابع دار الكتاب العربى بمصر .

٢ ـ أصول التربية الإسلامية وأساليبها فى البيت والمدرسة والمجتمع لـ عبد الرحمن النحلاوى دار الفكر .

٣ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بالبيضاوى لعبد الله بن عمر بن محمد البيضاوى ط دار الجيل ومصطفى البابى الحلبى بمصر .

٤ ـ أسباب النزول للإمام أبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى طبعة دار الفجر الإسلامى جـ ١ مصطفى البابى الحلبى .

٥ ـ الإسرائيليات والموضوعات للدكتور أبى شهبة .

٦ ـ الباقلانى وكتابه إعجاز القرآن دراسة تحليلية نقدية منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٧٣ .

٧ ـ البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد عبد الله الزركشى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعرفة بيروت لبنان .

٨ ـ البداية والنهاية تأليف أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤هـ دار الريان للتراث .

٩ ـ تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار لمحمد رشيد رضا الطبعة الثانية دار المعرفة بيروت .

١٠ ـ تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل تأليف / أبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى ٤٦٧ هـ ـ ٥٣٨ هـ . دار الفكر بيروت .

١١ ـ تفسير القرآن العظيم للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن كثير القرشى الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤ هـ ـ الناشر مكتبة التراث الإسلامى سوريا حلب .

١٢ ـ التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى ـ طبعة دار الفكر .

١٣ ـ تفسير الجامع لأحكام القرآن للإمام أبى عبد الله بن أحمد الأنصارى القرطبى الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٤ ـ تفسير الإمام البغوى (معالم التنزيل) ـ دار الكتب العلمية .

١٥ ـ تفسير فى ظلال القرآن للإمام للإمام سيد قطب دار الشروق الطبعة الشرعية الثانية عشرة ١٩٨٦ م ـ ١٤٠٦ هـ .

١٦ ـ تفسير الإمام الألوسى دار احياء التراث العربى بيروت ـ لبنان .

١٧ ـ جامع البيان عن تأويل القرآن للمفسر أبو جعفر بن جرير الطبرى دار إحياء الكتب العربية القاهرة .

١٨ ـ زاد المعاد لإبن قيم الجوزية .

١٩ ـ زبدة التفسير من فتح القدير محمد الأشقر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ـ دولة الكويت ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م ٠
٢٠ ـ سيكولوجية القصة فى القرآن رسالة دكتوراه جامعة الجزائر ١٩٧١ للدكتور التهامى نفرة الشركة التونسية للتوزيع ٠
٢١ ـ صحيح الإمام البخارى لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردوية البخارى الجعفى ﷺ ونفعنا به أمين ٠ دار مطابع الشعب وطبعة الحلبى ٠
٢٢ ـ صحيح الإمام مسلم بشرح الإمام النووى ٠ المطبعة المصرية ومكتبتها ٠
٢٣ ـ القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه لـ عبد الكريم الخطيب مطبعة دار الفكر العربى ـ مطبعة المدنى ٠
٢٤ ـ قصص الأنبياء للإمام الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى ٧٠٠ ـ ٧٧٤ هـ تحقيق الدكتور السيد الجميلى ٠ دار الجيل بيروت لبنان ٠ ـ وقصص الأنبياء للإمام أبى الفداء إسماعيل بن كثير ٠ المكتبة التوفيقية ٠
٢٥ ـ قصص القرآن تأليف محمد أحمد جاد المولى ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، على محمد البجاوى ، السيد شحاته الطبعة السابعة فيها زيادة قصص مع الضبط والتنقيح ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر ٠

٢٦ ـ قصص الأنبياء تأليف عبد الوهـــاب النجـــار أســـتاذ التـــاريخ الإسلامى بكلية أصول الدين ـ مكتبة دار التراث القاهرة ٠

٢٧ ـ لباب التأويل للخازن طبعة البابى الحلبى ٠

٢٨ ـ لسان العرب للإمام العلامة ابن منظور ٦٣٠ هـــ ـ ٧١١ هــ مؤسسة التاريخ العربى بيروت لبنان ٠

٢٩ ـ المفردات للراغب ٠ دار المعرفة بيروت ٠

٣٠ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل ٠ طبعة المكتب الإسلامى ٠

٣١ ـ المستدرك للحاكم أبو عبد الله النيسابورى المتوفـــى ســـنة ٤٠٥ هــ حيدر آباد الدكن ٠

٣٢ ـ المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعـــى تـــأليف أحمد بن محمد بن على المقرى الفيومى ـ دار الفكر ٠

فهرس الموضوعات

أبو عمر للكمبيوتر والتجهيزات الفنية
ت / ٥١٠٥٩٨٠ القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
١٨١٣٩ / ٢٠٠٠ م

الترقيم الدولى I . S . B . N
977 - 5819 - 91 - 1